الفصل الرابع

الفكر المقاصدي عند الفاروقي

أشرف محمود عقلة بني كنانة[1]

مقدمة:

لا يخفى على مشتغلٍ بالعلوم الشرعيَّة مدى أهميَّة البحث في مقاصد الشريعة الإسلاميَّة، خصوصاً في هذا العصر الذي نحن في أمسّ الحاجة فيه لنشر سماحة الإسلام، وإبراز إيجابياته ورحمته وشفقته على الخلق؛ في وقت تكالبت الأمم فيه على الإسلام والمسلمين؛ ليُظلَموا مرتين؛ مرة من أعدائهم، ومرة على أيدي أبنائهم، ولا حلَّ للخروج من المأزق إلا بالعودة لروح الكتاب والسنَّة، ونشر تعاليم الإسلام وسماحته للعالم أجمع ببناء النموذج العملي في واقع المسلمين أولاً، وبالعرض والحوار والإقناع ثانياً.

وقد آثرت اختيار أهم علم في الشريعة انطلق منه الفاروقي في دعوته ورسالته تلك؛ ألا وهو علم مقاصد الشريعة الإسلاميَّة؛ لأُبرز من خلال هذا العلم أفكاره الحيَّة التي نادى بها المسلمين في نَفَسٍ يمتلئ حُرقة، وزفرة تمتلئ همَّاً، ودعوة للتمسك بالثوابت والأصول، مستمداً كل ذلك من الكتاب والسنَّة، ومنطلقاً من مقاصدهما العامة والخاصَّة، مستقرئاً أحوال المسلمين القديمة والحديثة؛ فأخرج حلولاً جديرة بأن تدرس من جوانبها كافة.

ويأتي هذا البحث: "الفكر المقاصدي عند الفاروقي"؛ ليدرس ما قدَّم الفاروقي في دعوته للأمة الإسلاميَّة -كما يراها هو- لتخرج من مأزقها، ولتسترد

(١) دكتوراه في الفقه وأصوله من الجامعة الأردنيَّة سنة ٢٠٠٦م، أستاذ مشارك في قسم الفقه وأصوله، كلية الشريعة/ جامعة اليرموك/ الأردن، ashrafalkinane@yahoo.com.

سالف مجدها؛ فتتبعتُ أفكاره المقاصديَّة في دعوته تلك فيما كتب وسطَّر؛ إذ لم يكتب الفاروقي كتاباً في المقاصد من الجهة التنظيرية، وليس له كلام في المقاصد على سبيل التقعيد، وإنما ظهر عنده إعمال المقاصد، وتفعيلها في جوانب كثيرة من كتاباته، بوصفها تطبيقاً عملياً ولا سيّما تلكم الكتابات التي تدور حول سبل النهوض بالأمة الإسلامية، وطرق تخلص الأمة من أمراضها وألوائها ولأوائها، وبعض الكتابات في القضايا الأدبية والتربوية.

وهذه إحدى ثمار دراسة المقاصد؛ أعني التطبيق العملي لها؛ فلئن كانت المقاصد قد بحثت من جميع جوانبها النظرية غالباً، إلا أنها في الجانب التطبيقي العملي الذي جُعل التنظير من أجله، لم تُبحَث ذلك البحث.

يهدف البحث إلى بيان الفكر المقاصدي عند الفاروقي، ومدى استثماره لقواعد المقاصد من خلال تطبيقاته في مختلف كتبه وأبحاثه، خصوصاً وأنه من البارزين في الكتابة في الفكر الإسلامي والمنافحة عنه، ثم التصدي للفكر الغربي ووضع الحلول الإسلاميَّة لمكافحة انتشاره وتغلغله بين المسلمين.

أما منهجية البحث فتقوم على استقراء كل ما طالته يدي من كتب الفاروقي وأبحاثه، والبحث عن الأفكار المقاصدية فيها، ثم تصنيفها تحت العناوين المقاصديَّة المناسبة، مع التعليق عليها وشرحها ما أمكن، ولم أطل النفس في الحديث عن القاعدة المقاصديَّة عند المقاصديين والأصوليين؛ لأنها متقررة في كتبهم غالباً، ولكن نوهت لبيان معنى القاعدة المقاصديَّة من كلام أهل الاختصاص بما يفي بالغرض، ثم بينت كيف استثمرها الفاروقي، مدللاً مما تفرَّق من كلامه في كتبه وأبحاثه، تارة بالمعنى، أو بالشرح والبيان، أو بالاختصار، وتارة بالنقل الحرفي لنصوصه، ثم التعليق عليها ما أمكن؛ مركزاً في الاستقراء والدراسة على كتاب "التوحيد"، وكتاب "أسلمة المعرفة" له، ثم بقيَّة كتاباته -ما أمكن-.

أولاً: أهمية المقاصد لفهم الواقع وعلاج المستجدات ورؤية الفاروقي لها

إنّ هدف الشريعة وغايتَها مصلحةُ الإنسان بوصفه خليفة الله في الأرض، وبوصفه مسؤولاً أمامه يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم؛ لأن الله تعالى استخلف بني آدم ليقيم العدل، والإنصاف والمساواة في الأرض بيسر وسهولة، وعدم كلفة أو مشقة، وغاية الغايات؛ هي: تحقيق السعادة في الدنيا والآخرة، لمن اتبع هداه وانقاد لأمره ونهيه.[1]

ومقاصد الشريعة؛ هي: "الغايات التي وُضِعَتْ الشريعة لأجل تحقيقها؛ لمصلحة العباد."[2] ويعبّر عن المقاصد بألفاظ متعددة منها: الحِكَم، والعلل، والمعاني، والمصالح. ويعبر عنها في القرآن الكريم والسنة المطهرة: بالإرادة. ويعبر في القرآن الكريم والسنة المطهرة عن المصالح بـ: الخير والنفع والحسنات. وعن المفاسد: بالشر والضر والإثم والسيئات.[3]

١- أهمية المقاصد لفهم الواقع وعلاج المستجدات

لمعرفة مقاصد الشريعة، والعلم بها فوائد وآثار إيجابية تعود على المسلم المكلف سواءً كان مجتهداً أو قاضياً أو حاكماً، أو طالب علم، أو داعية ومربياً، أو كان عامياً مقلداً، بل ربما لذلك فوائد تعود على غير المسلمين، وكل هذه الفوائد بدورها تُبَصِّرُ الجميع بالواقع، وتُكسِبُهم خبرة في علاج المستجدات.

---

(١) العالم، يوسف حامد. **المقاصد العامة للشريعة الإسلامية**، الرياض: الدار العالمية للكتاب الإسلامي، ط٢، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م، ص٨٢ (بتصرف يسير).

(٢) الريسوني، أحمد. **نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي**، هيرندن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط٤، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م، ص١٩.

(٣) حبيب، محمد بكر إسماعيل. **مقاصد الشريعة تأصيلاً وتفعيلاً**، إدارة الدعوة والتعليم، سلسلة دعوة الحق، رابطة العالم الإسلامي، السنة ٢٢، عدد٢١٣ ، ١٤٢٧هـ، ص٢٥.

وتوضيح ذلك فيما يأتي:[1]

فالمجتهد: يحتاج للمقاصد، ليحسن تنزيل النصوص على الوقائع والحوادث المستجدة. والقاضي: يحتاجها، لتعينه على العدل والحكم الصحيح المطابق للواقع. والحاكم: يحتاجها، لتتوافق تصرفاته مع مصلحة الرعيَّة؛ فلا يوقعهم في الحرج والضيق والمشقة. وطالب العلم الشرعي: يحتاجها، ليعرف روح الحكم وهدفه؛ لئلا يوقعه حفظ المعلومات حفظاً مجرداً في الفهم المعكوس؛ فيسلم من الاضطراب والتشتت، فتتكون لديه الملكة العلميَّة الصحيحة، ويتحسن سلوكه في توجيه العلم وتحمله.

والداعية والمربي: تعينه مقاصد الشريعة على دعوته وتربيته؛ فإذا علم أن دعوته وتربيته ينبغي أن تنصبَّ على جلب المصالح للمدعوين، ودفع المفاسد عنهم؛ فيعطي كل ذي حق حقه، ويبني تصرفاته على سماحة الإسلام وعدله، فينجح في دعوته وتربيته. وعوامُّ المسلمين: وإن كانوا هم أقل الطوائف استثماراً لمقاصد الشريعة، إلا أن معرفتهم اليسيرة بها؛ ستدفع عنهم الأفكار الهدَّامة، والمصالح الموهومة، وما يتلقَّونه من الغزو الفكري الغربي، عبر وسائل الإعلام الحديثة. أما غير المسلمين: خصوصاً أولئك الذين يشعرون بأنهم يعيشون بلا هدف ولا معنى، ويبحثون عن السعادة فلا يجدونها، نتيجة للخواء الروحي، إذا ما علم هؤلاء سماحة الإسلام، وأنه قصد أن يخرجهم من الظلمات إلى النور، وأنه يرمي إلى تحقيق كل ما يريدون من المصالح التي فيها سعادتهم، وسد الفراغ الروحي لديهم؛ فلا بدّ أنهم سيتراجعون عن عقيدتهم إلى عقيدة الإسلام،

---

(١) حبيب، **مقاصد الشريعة تأصيلاً وتفعيلاً**، مرجع سابق، ص١١٩-١٣١. انظر أيضاً:
- جغيم، نعمان. **طرق الكشف عن مقاصد الشارع**، عمان: دار النفائس، ط١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م، ص٤٩-٥٠.
- بني كنانة، أشرف محمود عقلة. "أثر النظرة المقاصديَّة في فهم النص القرآني"، **مجلة الشريعة والدراسات الإسلاميَّة**، مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت، السنة ٢٦، عدد٨٥، جمادى الآخرة ١٤٣٢هـ/يونيو٢٠١١م، ص٩٠-٩٥ (بتصرف واختصار).

وكم نجح الدعاة في توصيل فكرةٍ حول سماحة الإسلام إلى هؤلاء؛ فنقلوهم من ظلمات الكفر إلى نور الإسلام.

٢- رؤية الفاروقي وإشاراته إلى معنى المقاصد وأهميتها

إن الناظر في كلام الفاروقي وبحثه؛ ليجد في ثناياه إشاراتٍ إلى معاني المقاصد وأهميتها، دون أن يهدف الفاروقي إلى بيان مفهوم المقاصد، والتأليف في أهميتها؛ فمن هذه الإشارات إلى معاني المقاصد -وهي كثيرة-، قوله حينما كان يتكلم عن نظام الشريعة الشامل، المتفاعل مع تطور الحياة؛ فوصف الشريعة؛ بأنها تُمسك: "بيدها نحو مقاصد الشريعة الإسلاميَّة، ونحو تحقيق الأهداف التي من أجلها سُنَّت هذه القوانين."(١)

ومن إشاراته لمعاني المقاصد، قوله حينما كان يتحدث عن نشر رسالة الإسلام وسماحته للعالم أجمع: "ويعمل على نشر حِكَم الشريعة؛ لتكون هي القانون الحاكم في الأرض."(٢) وهذا النقل عنه فيه إشارة إلى أحد معاني المقاصد الذي نوهنا إليها سابقاً، وهو: "الغايات التي وُضِعَتْ الشريعة لأجل تحقيقها؛ لمصلحة العباد"؛ إذ كل أحكام الشريعة لها غايات، وأهداف، وحِكَم تتوخاها تحقيقاً لمصلحة العباد.

وقد ظهر اهتمام الفاروقي بعلم المقاصد من خلال تطبيقاته وتنظيراته لمختلف المسائل -كما أسلفت-، ومن خلال إشاراته في بعض أبحاثه إلى ضرورة الاعتناء بأصول الفقه، الذي هو لبّ المقاصد وأُسُهَا؛ مبيناً تماسك الشريعة وحسن بنائها لأحكامها الثابتة والمتغيرة على أسسٍ تضبطُ الفهمَ من الزلل، وموضحاً أنها لا تُخْلِي أي عصرٍ من العصور عن حكمٍ لها، يستنبطه

---

(١) الفاروقي، إسماعيل. "الإسلام في القرن المقبل"، ترجمة: صلاح الدين حنفي، **مجلة المسلم المعاصر**، عدد٣٨، ١٩٨٤م، ص١٠.

(٢) الفاروقي، إسماعيل. **التوحيد؛ مضامينه على الفكر والحياة**، ترجمة: السيد عمر، د.م، د.ت، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م، ص٢٤٢.

الفقهاء من أصولها المرنة التي تصلح لكل زمانٍ ومكان؛ وذلك بدورة يُنتجُ فهماً صحيحاً للواقع، ويُعطي علاجاً فاعلاً للمستجدَّات.

ومن إشاراته إلى تلك الأهمية أستخلِصُ من كلامه ما يأتي:

أ- نبَّه الفاروقي إلى أن الفكر الأصولي عند المسلمين، يُعدّ مظهراً من مظاهر قوة المسلمين؛ لأنه مستمد من الشريعة الإلهيَّة، التي احتوت على كثير من التصورات المحددة مسبقاً، المبنيَّة على القرآن الكريم بطريق الاستنباط المباشر منه، وعلى السنة النبويَّة بطريق الاجتهاد البشري المفصَّل والمدروس حسب مصالحهم، وتصورهم في حدود تعاليم القرآن الأساسيَّة؛ كالعدالة، والإحسان، والحرية، وغيرها.(١)

ب- بيَّن الفاروقي أن علم أصول الفقه، أسَّسَه الفقهاء في القديم؛ وجعلوه سيداً لكل العلوم، وذلك حينما أدركوا كلَّ الإدراك أن النظرة الإسلاميَّة لدى الفقهاء لن تنضبط انضباطاً شاملاً عند تجسيدها أو تطبيقها، إلا بعلم أصول الفقه؛ وسبب ذلك يعود إلى أن قدراً كبيراً من الشريعة الإسلاميَّة قابلٌ للاجتهاد المتجدد المتغيِّر.(٢)

ت- أشار الفاروقي إلى أن علم أصول الفقه يتكون من الميادين الأساسيَّة لفهم القرآن الكريم، والسنَّة النبويَّة، ومن القواعد التي تُستنبط بها الأحكام بشكل غير مباشر من خلال المصدرين الأصليين الكتاب والسنة.(٣)

ث- استدرك الفاروقي على مَنْ سيزلُّ به الفهم؛ فوضَّحَ أن العلماء اجتهدوا في وضع قواعد تضبط فهم النصوص، وأن هذه القواعد مستمدَّة من

---

(١) الفاروقي، **الإسلام في القرن المقبل**، مرجع سابق، ص٩-١١ (بتصرف وشرح).

(٢) المرجع السابق، ص٩، ١٠ وما بعدها، (بتصرف وشرح).

(٣) المرجع السابق، ص٩، ١٠ وما بعدها، (بتصرف وشرح).

علوم مختلفة؛ كعلم دلالات الألفاظ، وعلم التفسير، وعلم المعاني، وعلم النحو والصرف، والعلماء بدورهم أسَّسوا هذه العلوم وفقاً لما تحتمله اللغة العربية من المعاني التي ورثتها الأجيال العربية بالحس العربي الأصيل، ولا مجال لوجود خللٍ أو وقوعٍ في زللٍ ما دمنا اتَّبعنا هذه القواعد المحكمة.[1]

ج - لم يُغفل الفاروقي الإشارة إلى موضوع الاستنباط للمسائل والوقائع الجديدة، وقدرة الشريعة على التطور ومتابعة تيار الحياة، في حال غياب النص القرآني؛ فبيَّن أن علم أصول الفقه حدَّدَ مقاصد الشريعة، وكيفية الاستنباط منها بدقَّة، من خلال الواقع العملي لحياة الناس؛ مسترشداً بمصادر كثيرة للاستنباط والاستدلال؛ كالقياس بنوعيه: المنطقي، والأصولي الذي سماه الإمام الشافعي اجتهاداً، وكالاستصحاب، والاستحسان، والمصالح المرسلة، والاستدلال، وغيرها من المصادر، وهي بدورها لا تَدَعُ نصاً إلا استثمرت معانيه كافة بكل أنواع الاستثمار، ولا واقعةً جديدةً إلا وأوضحت كيفية التعامل معها وردِّها لأصولها في ضوء مقاصد الشريعة العامَّة والخاصَّة.[2]

ح - رتَّب الفاروقي على ما سبق من النقاط: أن الشريعة الإسلاميَّة ليست نظاماً كليَّاً محكماً شاملاً، ومكوَّنةً من القوانين التي تحكم كلَّ مظهرٍ من مظاهر السعي الإنساني فقط، بل إنها متفاعلة قادرة على التغيُّر والتطور، وعلى متابعة تيار الحياة بكلِّ اتجاهاتها، ممسكةً بيدها نحو مقاصد الشريعة الإسلاميَّة، ونحو تحقيق الأهداف التي من أجلها سَنَّت هذه القوانين.[3]

---

(١) المرجع السابق، ص٩، ١٠ وما بعدها، (بتصرف وشرح).

(٢) المرجع السابق، ص٩، ١٠ وما بعدها، (بتصرف وشرح).

(٣) المرجع السابق، ص٩، ١٠ وما بعدها، (بتصرف وشرح).

خ - قال الفاروقي في أهمية معرفة عموم المسلمين -خصوصاً المبتدئين منهم- للمقاصد، وأن العلم بالمقاصد غير مقتصر على علماء الشريعة والباحثين فيها، في معرض خطابه للجامعيين، وخصوصاً المبعوثين منهم للجامعات الغربية، وأنه يجب عليهم أن يعوا أنهم يقدمون أنموذجاً عن أمة الإسلام؛ تلك الأمة المبدعة، وأن هذا أحد المقاصد العامة للإسلام؛ إذ يجب على كلِّ مسلم نقل الصورة الحسنة عن دينه ومعتقده، وأن يحاسب المرء نفسه ويلومها دوماً على التقصير، ولا يُلقِ باللوم على غيره، ولا شك أن هذا أحد المقاصد المهمة العامة للشريعة الإسلاميَّة؛ فقال عن هؤلاء الجامعيين: "ليسوا أصحاب رسالة، ولا يعون أنهم في ابتعاثهم يمثلون أمةً تطلب العلم، وتلح على التمكن منه، والإبداع فيه."[1]

وقال: "ألا يستحي الجامعيون، أن يتقدم العالم، وتتقدم الأمم المتخلفة، وهم لا يتقدمون؟ وهل يجوز للجامعيين اتهام حكامهم ورؤسائهم، وتحويل اللوم إليهم بدل أنفسهم."[2]

إنه توجيه من الفاروقي لهذا الصنف من الناس، أن يتنبَّه لنفسه، وأن يكون فاعلاً مع مجتمعه، صاحب فكر بعيد، يؤدي رسالته نحو أمته بحسن تعلمه وإبداعه، ورؤيته وبصيرته، يخطّئ نفسه قبل توجُّهه لمعرفة أخطاء الآخرين.

ثانياً: أثر المقاصد في فكر الفاروقي

إن اطّلاع الفاروقي على الثقافة الغربية، ودراسته للفلسفة أثناء إقامته هناك، عرَّفته كيف يفكر الغرب تجاه الإسلام والمسلمين وقضاياهم المختلفة، ثم إن دراسته للعلوم الشرعية بعد ذلك في الأزهر، جعلته يمازج بين فكر الغرب عن

(١) الفاروقي، إسماعيل. "حساب مع الجامعيين"، **مجلة المسلم المعاصر**، عدد٣١، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، ص٥٠.

(٢) المرجع السابق، ص٥٢.

الإسلام، وتقديمه للحلول الإسلامية العمليَّة؛ لخلوص المسلمين من تخطيطات الغرب ومكرهم، عبر مراحل زمنيَّة صالحة لهذا التغيير والخلوص، ولا شك في أن هذا الأمر يحتاج إلى معرفة ودراية بمقاصد الشرع الحنيف ومراميه القريبة والبعيدة، وهذا ما ظهر جلياً في فكر الفاروقي؛ كما تبينه المطالب الآتية:

١- أثر المقاصد في معالجة الواقع عند الفاروقي

انطلق الفاروقي في معالجته للواقع من حرقته على الدين الإسلامي، وثقافة المسلمين وتاريخهم العريق، الذي قُدِّم في الغرب على أنه مصدر لكل شر، ومنشأ لكل بليَّة؛ فبدأ يضع القواعد والأسس الفكرية، لإنقاذ سمعة الإسلام، ونشل أبنائه من مستنقعات الذل والهوان التي ألصقها الغرب بهم، وقد ظهر ذلك عند الفاروقي من خلال مقاصد شرعية عدَّة نلمسها في عبارات الفاروقي وكلماته، وقد حاولت أن أضع العناوين المقاصدية التي تناسب فكرة الفاروقي في كتاباته ما استطعت إلى ذلك سبيلاً، مؤكداً بها على أن أي مفكرٍ إسلامي لا بدّ أن ينطلق من مقاصد الشريعة؛ في دعوته الإصلاحيَّة؛ لأن المقاصد هي الأسس والأصول التي تجعل الفكر سليماً من الانحراف، وتجعله واعي التخطيط، متضحةً أمامه الأهداف والرؤى التي يريد الوصول إليها، ضمن ميزان دقيق بين تقدير المصالح والمفاسد.

أ- قصد الخالق من الخلق أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً:

وهذا المقصد عام في جميع الرسالات السماوية، ولا يجوز أن يتسرب إلى الذهن أن لله تعالى من وراء هذا المقصد ثمرة ترجع إليه، بل هي تعود إلى المكلف نفسه؛ لأن الله تعالى غني عن العالمين، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾. [فاطر: ١٥][1]

وفي تأكيد الفاروقي على هذا المقصد قال في معرض حديثه عن التوحيد ومبادئه، وأن من مبادئه: القدرة الإنسانية وقابلية الطبيعة للتطويع؛ فقال فيها:

(١) العالم، **المقاصد العامة**، مرجع سابق، ص٨٢-٨٤.

"يترتب على حقيقة أن لكل شيء في الوجود غاية خُلق من أجلها، أن للكون في مجمله غاية، وأن تحقيق تلك الغاية داخل في حدود قدرة الإنسان في هذه الحياة الدنيا ضمن الزمان والمكان. ويحدد القرآن تلك الغاية بعبادة المكلفين لله، ويوضح أن مبنى التكليف على الابتلاء في درجة الإجادة في العمل. يقول الله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الذاريات: ٥٦]، ويقول: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ﴾ [الملك:٢]. ولو لم يكن أمر الوجود كذلك، لما كان هناك مفر من النزعة القلبية. فدون غاية العبادة لله والابتلاء، تفقد عملية الخلق ذاتها، وكذا عمليات الزمان والمكان، معناها ومغزاها. ودون قدرة الإنسان على الفعل، وقابليَّة الطبيعة لإعادة التشكيل، يتهاوى صرح التكليف والالتزام الأخلاقي، وبانهياره تتحطم الغاية التي من أجلها خلق الله الكون."(١)

ويقول في موضع آخر مقرراً أن التوحيد مبدأ الأخلاق: "يؤكد التوحيد أن الله تعالى الواحد الأحد خلق الإنسان في أحسن تقويم لعبادته... فمسوّغ وجود الإنسان؛ هو طاعة الله وتنفيذ أمره. ويؤكد التوحيد -أيضاً- أن جوهر هذه الغاية؛ هو استخلاف الله تعالى للإنسان فى الأرض. يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [البقرة:٣٠]. وبمقتضى هذا الاستخلاف، حمَّل الله تعالى الإنسان، فيما بينه القرآن الكريم، الأمانة التي لم تطق السموات والأرض حملها، وأشفقن منها. يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾ [الأحزاب:٧٢]"(٢)

وقد حاول الفاروقي معالجة واقع المسلمين من خلال هذا المقصد في مواطن عدة من كتاباته، بل خصص لذلك بحثاً مستقلاً وسمه بـ: أبعاد العبادة في الإسلام، وهذا يدل على عدم رضاه عن واقع معين يعيشه المسلمون في عباداتهم،

(١) الفاروقي، **التوحيد؛ مضامينه على الفكر والحياة**، مرجع سابق، ص٤٩-٥٠.

(٢) المرجع السابق، ص١٢٠.

أو أنه رأى خللاً في تصور مفهوم العبادة عند فئة معينة، إما إنهم قَلَبُوهَا عادةً، وإما أنهم جرَّدوها من مضامينها، وإما أنهم لم يؤدوها على الوجه المطلوب من جهة كمالها؛ فمن ذلك قوله: "المسلمون مخفقون في طاعة أمر الله بأن اعملوا؛ إذ لا نعمل إلا بربع ما فينا، سواء كنا فلاحين، أم حُكَّاماً... وما أحرى المسلم بأن يذكر بأنه دون عمل لا يستقيم له سوى الفقر، والفقر من وعد الشيطان."[1] ويكاد هذا يكون مطابقاً للحديث الذي رواه عَمَّارَ بْنَ يَاسِر، قال:سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: "إِنَّ الرَّجُلَ لِيُصَلِّي الصَّلاَةَ، وَلَعَلَّهُ لاَ يَكُونُ لَهُ مِنْهَا إِلاَّ عُشْرُهَا، أَوْ تُسْعُهَا، أَوْ ثُمُنُهَا، أَوْ سُبُعُهَا، أَوْ سُدْسُهَا، حَتَّى أَتَى عَلَى الْعَدَدِ."[2]

وقد وجَّه الفاروقي إلى ضرورة توسيع معنى التعبُّد؛ ليشمل العبادة بمعناها العام، لا بمعناها الخاص؛ فيدخل في التعبُّد كل عمل قصد به العبد وجه الله تعالى من الأعمال الفاضلة المباحة، إذا هو أحسن التوجَّه بها إلى الله تعالى، وحوَّل نيَّته من مجرد كونها أعمالاً مباحة، إلى كونها أعمالاً تدخل في طاعة الله تعالى، وهذا المقصد مهم جداً في حياة العبد؛ فإنه إن علم أن الله تعالى سيأجره على أعمالٍ يوميَّة يقوم بها بطبيعته البشريَّة، إن أحسن النيَّة، كانت له أكبر دافع ومشجع على الاستمرار في العمل في همَّةٍ عالية، وروح سامية؛ وهذا سرُّ نجاح كثير من الناس في أعمالهم، وبذلك يستشعر المسلم أنه خاضعٌ لله دوماً ومحتاجٌ إليه؛ فيحققَ مقصود الخالق من الخلق في التعبد في أوسع مدًى؛ ليستوعب جميع حياة الإنسان.

---

(١) الفاروقي، إسماعيل. "أبعاد العبادة في الإسلام"، **مجلة المسلم المعاصر**، عدد١٠، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م، ص٢٦.

(٢) ابن حنبل، أحمد. **المسند**، الرياض: بيت الأفكار الدولية للنشر والتوزيع، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، مسند الكوفيين، حديث عمار بن ياسر ﷺ، حديث رقم ١٨٨٩٩. انظر أيضاً:

- ابن حبان، أبو حاتم محمد بن حبان بن أحمد التميمي البستي. **صحيح ابن حبان بترتيب مع الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان**، لابن بلبان، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م، كتاب: الصلاة، باب: صفة الصلاة، حديث رقم ١٨٨٩، وصححه الألباني.

وحول هذا يقول الفاروقي: "حراثة الأرض، والإنتاج في المصنع، أو المكتب عبادة، والحمل وتربية النسل، والعناية بالبيت عبادة، والجهاد المسلح، والترفيه عن النفس المرهقة عبادة، والتفقُّه في الدين، والكيمياء عبادة."[١] ويقول -أيضاً-: "لقد بارك الله لنا في غرائزنا، ومشاعرنا، وفي طعامنا ودنيانا، وفي الوقت نفسه حذَّرنا من أن نسمح للدنيا بالسيطرة على الحياة وخرق الأخلاق، وهذه هي الروحانية الصحيحة، والحضارة معاً."[٢]

ويقول منتقداً على مَنْ يُضَيِّقُ من مفهوم العبادة: "بينما كانت تسود في صدر الإسلام رؤيا عامة شاملة لجميع مرافق الحياة، تؤثِّر في كل عمل، وكل دقيقة من حياة المسلم، كان السائد في القرون التالية عبادات يؤمها الأئمة، وقوانين تديرها المحاكم، وحلقات ذكر، ورياضة روحيَّة، يرودها مشايخ الصوفيَّة."[٣] ويقول -أيضاً- بعد أن أطلق على تلك الصوفية اسم: الصوفيَّة السوداء:[٤] "انحرفت رغبة المسلمين في المعرفة خلال فترة انحدار القرن ١٣-١٩م، بسبب انغلاق المنهج الصوفي، وتسلط شيوخه، واتخاذهم طريقاً مبتسراً لإصلاح النفوس وتزكيتها، من خلال الشعوذة، وما يُصاحبها من أعمال السحر والتقديس، والتنجيم والخرافات، وبالدرجة نفسها، أوهن التصوف من عزيمة المسلمين، وجعلهم عازفين عن الاندماج، والتغلغل في شؤون الأمة العامَّة، وتحمُّل مسؤوليَّة ترشيد إدارتها."[٥]

---

(١) الفاروقي، **أبعاد العبادة في الإسلام**، مرجع سابق، ص٢٥.

(٢) المرجع السابق، ص٣٦.

(٣) الفاروقي، إسماعيل. "الاجتهاد والإجماع كطرفي الديناميكية في الإسلام"، **مجلة المسلم المعاصر**، عدد٩، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م، ص١٠.

(٤) الفاروقي، **الإسلام في القرن المقبل**، مرجع سابق، ص١٥. ولعلنا نفهم من إطلاق الفاروقي لهذا الاسم على الصوفيَّة، بطريق مفهوم المخالفة: أن هناك صوفيَّة بيضاء، حتى لا نشمل جميع طبقات الصوفيَّة وأفرادها بالسلبيَّة.

(٥) المرجع السابق، ص١٣. وما قاله هنا يؤكد على ما قلته في الهامش السابق؛ إذ ليس كل المتصوفة أهل دجل وسحر وشعوذة، وإن كان ذلك موجوداً فيهم كثيراً.

وحديثه هذا يقودنا بدوره إلى المقصد الثاني -الآتي-، كيف حاول الفاروقي علاج الخلل ها هنا، بطريق الإشارة إلى علاجين، أحدهما إيجابي ارتضاه. والآخر سلبي نبذه.

ب- قصد الشارع من التشريع إسعاد الأفراد والجماعات في الدارين:

ومعنى هذا المقصد: أن الغاية التي قصدها الشارع من التشريع، والأسرار التي وضعها الشارع الحكيم عند كل حكم من الأحكام؛ هو: إسعاد الأفراد والجماعات، وحفظ النظام، وتعمير الدنيا بكل ما يوصل إلى الخير والكمال الإنساني، حتى تصير الدنيا مزرعة للآخرة؛ فيحظى الإنسان بسعادة الدارين.[1]

وقد عدَّ العلماء خمسة مقاصد تعدّ ضرورية؛ بحيث إذا فقدت أو فقد بعضها اختل نظام حياة الناس، وهي ما يسمى عند العلماء بـ: الكليات الخمس، أو: الضروريات الخمس؛ وهي: حفظ الدين، وحفظ النفس، وحفظ العقل، وحفظ النسل، وحفظ المال.[2]

ومن أنواع المقاصد: المقاصدُ العامة؛ وهي: الغايات والأسرار والحكم التي لاحظها الشارع في جميع أنواع التشريع وأحواله؛ مثل: الفطرة، والسماحة، واليسر، ورفع الحرج، ورفع الضرر، وغاية ذلك كله: درء المفاسد وجلب المصالح، في كل ما من شأنه أن يحقق هذه الغاية وهذا المقصد.[3]

---

(١) العالِم، **المقاصد العامة**، مرجع سابق، ص٨٢-٨٤.

(٢) الشاطبي، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي. **الموافقات**، تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، تقديم: العلامة بكر بن عبد الله أبو زيد، المملكة العربية السعودية: دار ابن عفان، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م، ج٢ ص١٧-٢٣.

(٣) العالم، **المقاصد العامة للشريعة الإسلامية**، مرجع سابق، ص٧٩-٨٥، انظر أيضاً:
- عمر بن صالح. **مقاصد الشريعة عند الإمام العز بن عبد السلام**، عمّان: دار النفائس، ط١، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م، ص١٤٣-١٦٤، ٤٦٦-٥١٨.

قال الفاروقي في معرض كلامه عن المسؤوليَّة والمحاسبة التي هي أحد المبادئ الخمسة التي تشكل لبّ التوحيد، ومؤكداً على هذا المقصد الشرعي العظيم: "وأن القاعدة أن طاعة الله تعالى بمعرفة أوامره، وتجسيد نموذجه في أرض الواقع، هو سبيل الفلاح والسعادة واليسر. وفى المقابل؛ فإن معصية الله تعالى تفضي بصاحبها إلى البوار والضنك وسوء المنقلب."[1]

ومن إشارات الفاروقي لبعض أنواع هذا المقصد -أيضاً- قوله: "جاء الإسلام لخدمة الأهداف العليا للمجتمع الإنساني كافة، بوصفه جزءاً مكملاً لرسالته... واعتبر الإسلام العنصرية، أو أي نظام يقوم على الانتخاب، أو الاختيار، أو على أساس طبقي أو عرفي، أو عصبي؛ كتحدٍّ للتوحيد؛ ولذلك صارع العصبيَّة العقليَّة، حتى النهاية، أينما قابلها، مبتدئاً بمهدها الرئيس: مكة. ومن جهة أخرى لم يغفل الإسلام الطبيعة الدقيقة للحياة الإنسانيَّة؛ فلقد اعترف بالعائلة في أوسع نطاق لها، وعزَّز تماسكها وصلابتها بقوانين الثبات والوراثة، ولقد اعترف -أيضاً- بالكيانات العرفيَّة المتمثلة في اللغة والعادات، بل واتخذه أساساً للتغيير المطلوب، ولإغناء الحضارة الإسلاميَّة، لـمّا توافقت هذه الكيانات العرقيَّة مع متطلبات الشريعة الإسلاميَّة."[2]

وكلامه هذا فيه إشارة إلى هدف الشريعة السامي، الموصل للسعادة الدنيويَّة والأخرويَّة؛ فليست العنصرية والطبقيَّة، أو إشاعة الفوضى، في الصالح العام للبشريَّة؛ فألغى الإسلام كل هذه المظاهر؛ لترتُّب الفساد الأكيد عليها. وبالمقابل أحيا الإسلام الروابط العشائريَّة، والأعراف الحميدة، ما دام أنها تحقق مصالح عاجلة أو آجلة للبشريَّة، بل عدّ الإسلام ذلك مظهراً حميداً يقود لعز الإسلام وإغنائه ونهضته، إنها موازنة دقيقة بين المصالح والمفاسد، مقصدها الأكيد: إيصال الخلق للسعادة.

---

(١) الفاروقي، **التوحيد؛ مضامينه على الفكر والحياة**، مرجع سابق، ص٥٢.

(٢) الفاروقي، **الإسلام في القرن المقبل**، مرجع سابق، ص١٥.

ت- قصدت الشريعة أن تتقيد الأمة بفهم الأوَّلين من السلف؛ لأنه يقطع احتمالات الأدلة حتماً، ويضع الحلول الجذرية لألواء الأمة ومصائِبَها:

هذا من أعظم مقاصد الشريعة الإسلاميَّة العمليَّة، الذي أثبت جديَّته وفاعليَّته في إيجاد حلولٍ للواقع، ولأزمات الأمة؛ ويعني هذا المقصد: أنَّ مَنْ وَقَعَ في الارتياب والخلل، وأصابه الشك والاحتمال، إما في فهم الأدلة، وإما في البحث عن إصلاحٍ لخللٍ ما، وبالأخص الخلل المستجد المعاصر؛ عليه: أن ينظر في كيفية فهمِ السلف للواقع، وما طريقهم في فهم النصوص، وما منهجهم في العمل بها، وتخريج الواقع عليها؛ ففي فهمهم الهداية، وفي منهجهم العصمة؛ لأنهم يصدرون عن ثوابت الأمة، وهم أقدر منَّا في تخريج الوقائع الجديدة، على الثوابت الأكيدة، ومن لا ثوابت عنده، لا حلّ يرتجى منه، وثوابت الإسلام إن لم يكن فيها العلاج؛ فلا علاج في ثوابت غيره، من باب أولى.

قال الشاطبي بعد أن قرر وجوب النظر في أعمال الأولين من السلف: "فلهذا كله: يجب على كل ناظر في الدليل الشرعي، مراعاة ما فهم منه الأوَّلون، وما كانوا عليه في العمل به؛ فهو أحرى بالصواب، وأقوم في العلم والعمل."[1] وقال: "فإن العمل -يعني بذلك: عمل السلف- مُخَلِّصٌ من شوائب المحامل... والنظر في أعمال المتقدِّمين، قاطعٌ لاحتمالاتها حتماً، ومعيِّنٌ لناسخها من منسوخها، ومبيِّنٌ لمجملها."[2]

والرجوع لفهم السلف وعملهم؛ هو الركن الثالث، بعد محاولة معرفة معاني نصوص الكتاب والسنة؛ لأنَّ فهم الناس للكتاب والسنة منه الصحيح ومنه السقيم، فيقتضي الأمر ركناً ثالثاً طلباً لسلامة الفهم، واعتزازاً بالثوابت؛ وهو: تقييد فهم الخلف بفهم السلف؛ فقوله تعالى: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ

(١) الشاطبي. **الموافقات**، مرجع سابق، ج٣، ص٢٨٩.

(٢) المرجع السابق، ج٣، ص٢٨٨.

أَنعَمتَ عَلَيهِم غَيرِ ٱلمَغضُوبِ عَلَيهِم وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾ [الفاتحة: ٦ - ٧]، اشتمل على ركن: فهم السلف لهذا الصراط.

وقد جاء تحديد زمن السلف الذين لا تجوز مخالفتهم، أو الخروج عن مجمل فهمهم،[١] في حديث ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "خَيْرُ النَّاسِ: قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ يَجِيءُ قَوْمٌ تَسْبِقُ شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِينَهُ، وَيَمِينُهُ شَهَادَتَهُ."[٢]

فالقرون الثلاثة الأولى: هي خير قرون هذه الأمة في الأعمال، والأقوال، والاعتقاد وغيرها من كل فضيلة، وهم أفضل من الخلف في كل فضيلة، من علم، وعمل، وإيمان، وعقل، ودين، وبيان، وعبادة. وهم أولى بالبيان لكل مشكل،[٣] ومستحيل أن يكونوا قصروا في هذا الباب أو جفوا عنه، أو غَلَوا فيه، والدين

(١) الجزائري، عبد المالك بن أحمد المبارك رمضاني. **مدارك النظر في السياسة بين التطبيقات الشرعية والانفعالات الحماسية**، القاهرة: دار الإمام أحمد، ط٨، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، ص٤١-٤٢ (بتصرف يسير). وها هنا قلنا: "مجمل فهمهم"؛ لئلا يتقوَّل متقوِّلٌ بأننا نقصد تقليد السلف في كلِّ شيء تقليداً أعمى، بل عملٌ بهديهم، مع البصيرة والفهم وحسن التخريج على الواقع.

(٢) البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي. **صحيح البخاري**، دمشق-الرياض: دار الفيحاء، ودار السلام، ط٢، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م، كتاب: الشهادات، باب: لا يشهد على شهادة جور إذا أُشهد، ص٤٢٩، حديث رقم٢٦٥٢، وكتاب: فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب: فضائل أصحاب النبي ﷺ، ومن صحب النبي ﷺ، أو رآه من المسلمين؛ فهو من أصحابه، ص٦١٢، حديث رقم٣٦٥١، وكتاب: الرقاق، باب: ما يحذر من زهرة الدنيا، والتنافس فيها، ص١١١٦، حديث رقم٦٤٢٩، وكتاب: الأيمان والنذور، باب: إذا قال أشهد الله أو شهدت بالله، ص١١٥٠، حديث رقم٦٦٥٨، انظر أيضاً:
- مسلم، أبو الحسين بن الحجاج القشيري النيسابوري. **صحيح مسلم**، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الرياض: رئاسة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، كتاب: فضائل الصحابة، باب: فضل الصحابة ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، ج٤، ص١٩٦٢-١٩٦٣، ح٢١٠/ ٢٥٣٣.

(٣) ابن تيمية، أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام الحراني. **مجموع الفتاوى**، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد قاسم العاصمي النجدي، وساعده ابنه محمد، بيروت: دار العربية للطباعة والنشر، ط١، ١٣٩٨هـ، ج٤ ص١٥٧-١٥٨ (بتصرف).

إذا أُحيل فهمه على تأويلات المتأولين انتقضت عراه كلها، ولا تشاء طائفة من الطوائف أن تتأول النصوص على مذهبها إلا وجدت السبيل إليه.[1]

قال ابن تيمية: "فمن اتبع السابقين الأولين: كان منهم، وهم خير الناس بعد الأنبياء؛ فإنَّ أمَّة محمَّد ﷺ خير أمَّة أخرجت للناس، وأولئك خير أمة محمد ﷺ... ولهذا كان معرفة أقوالهم وأعمالهم: خيراً وأنفع من معرفة أقوال المتأخرين وأعمالهم في جميع علوم الدين وأعماله... وإذا تنازعوا: فالحق لا يخرج عنهم؛ فيمكن طلب الحق في بعض أقاويلهم، ولا يُحكَم بخطأ قول من أقوالهم حتى يعرف دلالة الكتاب والسنة على خلافه."[2]

فإذا كانت معرفة أقوال وأعمال السلف أنفع من معرفة أقوال وأفعال المتأخرين، من أمَّة محمَّد ﷺ؛ فكيف بمن يترك أقوال السلف وعملهم وفهمهم، لأقوال وأعمال وأفهام الغرب؟! ولذلك؛ حذَّر الشاطبي: من مخالفة عمل السلف؛ فقال: "الحذر... الحذر من مخالفة الأوَّلين! فلو كان فضلٌ ما، لكان الأولون أحق به[3]... فما كانوا عليه من فعل أو ترك؛ فهو: السنة والأمر المعتبر، وهو: الهدى، وليس ثمَّ إلا صواب أو خطأ، فكل من خالف السلف الأوَّلين: فهو على خطأ."[4]

ولم يُجِّوز الشاطبي مخالفة الأوَّلين من السلف في عملهم، إلا لحجة أو مسوغ، كالحاجة، والضرورة، والاحتمال الذي ينهض به الدليل؛ فقال: "وبسبب ذلك ينبغي للعامل أن يتحرى العمل وفق الأولين، فلا يسامح نفسه في العمل

---

(١) ابن القيم، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب الجوزية. **الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة**، تحقيق: علي بن محمد الدخيل الله، الرياض: دار العاصمة، ط٣، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م، ج١، ص١٥٦-١٥٧.

(٢) ابن تيمية، **مجموع الفتاوى**، مرجع سابق، ج١٣، ص٢٤.

(٣) الشاطبي، **الموافقات**، مرجع سابق، ج٣، ص٢٨٠.

(٤) المرجع السابق، ج٣، ص٢٨١.

بالقليل؛ إلا قليلاً، وعند الحاجة ومس الضرورة إن اقتضى[1] معنى التخيير، ولم يَخَفْ نسخَ العمل به، أو عُدِمَ صحةً في الدليل، أو احتمالاً لا ينهض به الدليل أن يكون حجة، أو ما أشبه ذلك."[2]

فحول تأكيد الفاروقي على هذا المقصد، وضرورة الرجوع بالفهم والتطبيق إلى عصر السلف حتى تستقيم الأعمال والتصرفات والنيَّات، إنقاذاً للأمة من انحدارها في المعرفة الذي أنتجه الانغلاق، وتسلُّط الشيوخ، وما ألحقه هذا المنهج من وهَنٍ المسلمين، يقول: "وقد برز أمام هذا الاتجاه الصوفي تياران، سُمِحَ لهما بالعمل على مناهضة الصوفيَّة، ولكل منهما دوافعه التي تختلف عن الآخر، وربما تكون الأهداف متضاربة." ثم ذكر أن الاتجاه الأول تمثله السلفيَّة، مرتضياً ما قاموا به من تصحيح لخلل الصوفيَّة؛ فقال: "القوة الأولى: تمثلها القوة السلفيَّة، أو حركة إحياء التراث، والسلفيَّة في أصلها روح إسلاميَّة صافية نابعة من الإيمان الحقيقي، لقد أدرك المسلم انطلاقاً من إيمانه أن زيغ التاريخ وانحرافه، يكون بابتعاده عن مبادئ الإيمان، لقد أدى وَعْيُهُ بالديانات السماويَّة إلى عدّ التاريخ، دالةً على استقامة الإنسان أو عدم استقامته. فالسلفيَّة إذن؛ ليست إلا عودة إلى سنة الرسول ﷺ، وصحابته الكرام، كما أمر الله تعالى باتباعها، عودة لمبادئ القرآن والسنَّة النبويَّة التي طبقها عمليَّاً الرعيل الأول من المسلمين، الذين عُمِّرَتْ قلوبهم بنفحات التوحيد بوصفه نظاماً للحياة."[3]

---

(١) أي: العمل بالقليل؛ بأن كان الدليل الذي أخذ به يصلح معارضاً لما عمل به الأكثر، ولا يكون ذلك إلا حيث يُحتج به، وإن ترجح الآخر بكثرة العمل به. انظر:
- دراز، عبد الله بن محمد بن حسنين. **تعليقاته على الموافقات للشاطبي**، تحقيق: أبو عبيدة مشهور ابن حسن آل سلمان، تقديم: العلامة بكر ابن عبد الله أبو زيد، المملكة العربية السعودية: دار ابن عفان، ط١، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م، (مطبوعة مع "**الموافقات**" للشاطبي)، ج٣، ص٢٧٩، هامش٢.

(٢) الشاطبي، **الموافقات**، مرجع سابق، ج٣، ص٢٧٩-٢٨٠.

(٣) الفاروقي، **الإسلام في القرن المقبل**، مرجع سابق، ص١٣-١٤.

هكذا رأى الفاروقي أن علاج ما أدى إليه المنهج الصوفي عموماً لأنواع عدَّة من الانحرافات والهِنَات، التي جعلت الأمة تنحرف عن مسارها، وتتخلف عن ركب إصلاحها، وتحمُّل المسؤولية تجاهها، يكمن بالرجوع إلى ما كان عليه الأوَّلون من السلف من التطبيق العملي الجاد النافع الذي يمتاز ببعد المدى وبالمرونة، لتطبيق المبادئ الإسلاميَّة الأصيلة التي جاء بها القرآن والسنة، والسلف هم خير الناس الذين تُفهم النصوص بفهمهم، وهم خير من يُقتدى بهم في كيفيَّة تطبيقها؛ لأنهم عاصروا التنزيل وفهموا مقاصده، على يد المعلم الأول نبي المرحمة محمد بن عبد الله ﷺ.

ويرى الفاروقي مع ضرورة الرجوع لعصر السلف، ضرورة الرجوع للتوحيد الصحيح، وللعلم المؤسس على التوحيد الصافي؛ فقال: "ويعنى التوحيد بالضرورة،... نفى وجود أيّة قوة فاعلة أخرى مع الله تعالى، الذي فطر الكون، على سنن أبدية لا تغيير لها ولا تبديل. ويرقى ذلك إلى مصافٍّ الإقرار بأن كل مبادرة من جانب أيّة قوة طبيعية، محكومة في نهاية المطاف بقدرة الله تعالى وتصريفه. وبذا تنتفي أوهام السحر، والشعوذة، والأرواح الشريرة، وأية تصورات مشعوذة عن تدخل تحكمي من جانب أي مخلوق في عمليات الطبيعة. بلغة أخرى؛ فإنه بالتوحيد تتم المفاصلة بين الطبيعة، والآلهة والأرواح المزعومة الخاصة بالأديان البدائية، وخرافات السذج والجهلة.

ولقد أفاض الشيخ محمد بن عبد الوهاب في كتابه: "التوحيد الذي هو حق الله على العبيد"[1] في بيان أن كلَّ خرافةٍ، وكلَّ عملٍ من أعمال السحر أو الدجل، يوقع فاعله، والمتعاطي معه المصدق له في الشرك، أي في انتهاك

(١) عقد الإمام محمد بن عبد الوهاب أبواباً في ذلك؛ مثل باب: باب: ما جاء في السحر، وباب: بيان شيء من أنواع السحر، وباب: ما جاء في الكهان، وباب: ما جاء في النشرة، وباب: ما جاء في التطير، وباب ما جاء في التنجيم، وغيرها، انظر:
- عبد الوهاب، محمد بن سليمان التميمي. **التوحيد الذي هو حق الله على العبيد،** (مطبوع مع: فتح المجيد لشرح كتاب التوحيد، لعبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب، تحقيق: الوليد بن عبد الرحمن بن محمد آل فريان)، د.ن، ط٩، ١٤٢٣هـ/١٤٢٤م، ص٣١٥-٣٦٦.

حمى التوحيد."[1] ويقول -أيضاً- حاثّاً على العلم ورابطاً بين العلم والتوحيد، وأن التوحيد الصحيح يقود إلى العلم: إنَّ "بناء العلم لا يحتاج إلى نفي فعل الله تعالى المستمر في الكون، بل إلى تخليص العلم من أساطير الأرواح والأشباح الوهمية. ومبدأ التوحيد هو الذي يجمع كل خيوط السببية ويضعها في يد الله تعالى وحده، ويستأصل ظن وجودها في يد قوى أخرى وهمية خفيَّة. وخلاصة هذا الخيط الفكري الفارِق: أن التوحيد الإسلامي هو شرط العلم المؤسس على سنن كونيَّة تكوينيَّة وتكليفيَّة ثابتة."[2]

وكلام الفاروقي هنا يؤكد على أن الحل للخروج من هذا الواقع المؤلم الذي أدى إلى الانغلاق وخرافات، لا يكون إلا بالعلم الصحيح المؤسس على التوحيد الصافي، الذي يعتقد صاحبه بوحدانيَّة الله تعالى في كل شيء، وأنه وحده هو المتحكم في الكون وتصريفه، وهذا بدوره لا يكون إلا بتحقيق عبودية الله تعالى -كما بيَّناه في المقصد الأول-، وباتِّبَاع عصر السلف، تلك الفئة المشهود لها بالفضل والخيريَّة، التي فهمت مراد الله تعالى كما شاء الله تعالى.

أما الاتجاه الثاني الذي حاول معالجة هذا الواقع المرير الذي أشار إليه الفاروقي؛ فهو اتجاه الحداثيين،[3] الذين انطلقوا من تقليد الغرب في علاجهم للواقع، وهم وإن كان دافعهم في الجملة وأول الأمر صحيحاً، إلا أنهم لا يدركون مساوئ هذا الاتجاه، وما هي روح الغرب التي صدروا عنها؛ فلم يرتضِ

(١) الفاروقي، **التوحيد؛ مضامينه على الفكر والحياة**، مرجع سابق، ص١٠٧.

(٢) المرجع السابق، ص١٤.

(٣) يعني الفاروقي ما أصبح يُعرف بالحداثيين العرب، الذين قاموا بنقل الحداثة الغربيَّة إلى مجتمعاتنا العربيَّة؛ ولهذا لا يمكن فصل الحداثة العربية عن الحداثة الغربية باعتراف الحداثيين العرب أنفسهم. وبهذه المفاهيم التي نقلها الحداثيون العرب من الغرب، شنوا هجومهم الضاري على الإسلام مفترضين عن جهل، تصادم الإسلام مع العلم، كالحال في بلاد الغرب، فراحوا يقيّمون ويعدّلون في الإسلام والوحي والرسالة وفق أهوائهم. انظر:
- خضر، أحمد إبراهيم. "وقفات مع اليسار الإسلامي"، **مجلة المجتمع**، عدد٩٠١، ١٧ جمادي الآخرة ١٤٠٦هـ، يناير ١٩٨٩م، ص٢٤.

الفاروقي طريق هؤلاء في علاج الخلل؛ لأنهم وقعوا فيما منه فروا؛ وهو: التقليد، ففروا من تقليد الصوفيَّة لمشايخهم، وما أنتجه ذلك من ويلات على الأمة، إلى تقليد الغرب، هذا الغرب الذي حَكَمَ عليهم بعدم الإنتاج إلا بطريق تقليدهم تقليداً متواضعاً.

وهكذا؛ فإن الفاروقي لم يرتضِ الاتجاه الثاني في العلاج؛ لأجل ما سبق بيانه، مثنياً ومرتضياً طريق أصحاب الاتجاه الأول في العلاج، مدللاً على أن أُمَّتَنا تملك العلاج بنفسها، ولا تحتاج إلى تقليد أحد، كائناً من كان. وفي ذلك يقول: "القوة الثانية: هي مثار التحديث الذي ينبثق -أيضاً- من نفس المنطلق، وبرغم ذلك قد اختار طريقاً آخر، ألا وهو: تقليد الغرب، هذا الطريق يعتمد على تبنِّي طرق الغربيين التنظيميَّة، ومهاراتهم وأفكارهم؛ ومن ثمّ السماح لهم بفتح مدارس جديدة لتعليم المسلمين، أو إرسالهم للدراسة في معاهد أوروبا. وكان هدف هذه المدارس الجديدة من خلال الاستعمار؛ هو التبشير المسيحي بين المسلمين، أو على الأقل زعزعة إيمانهم بعقيدتهم، وزيادة تعلقهم بالدنيا، وذلك بصبغهم بالثقافة الأوربيَّة، ومن ثمّ يصبح تعاونهم مع الغزاة المستعمرين أمراً ميسوراً، وأخيراً لجعلهم بعيدين عن علوم الطبيعة. وإن هذه المدارس التجديديَّة في العالم الإسلامي، تقلد الغرب دون إدراك لروحه، ناهيك عن احتوائها لذلك؛ فقد حُكِم عليهم بألا يُنتجوا شيئاً أكثر من التقليد المتواضع، وقد أنتجوا فعلاً أجيالاً على هذه الشاكلة."[1]

إنَّ حديث الفاروقي، السابق، عن وجود منهجين قاما بعلاج واقعٍ مريرٍ للأمة، مع تفنيد طرقهما في العلاج مبيناً آثار كلٍ منهما، وارتضاؤه للاتجاه والمنهج الأول يدل -من جهة- على بصيرته بالواقع جيداً، ومن جهة أخرى يؤكِّد على إبرازه للجانب المقاصدي في ضرورة استقلاليَّة الشخصيَّة الإسلاميَّة، وأن مقدَّرات الأمة الإسلامية، إن أحسنت هي الفهم، ثم التطبيق والعمل، كفيلةٌ

(١) الفاروقي، **الإسلام في القرن المقبل**، مرجع سابق، ص١٤-١٥.

بعلاج أي خللٍ أو انحرافٍ يطرأ عليها، وليس أحدٌ أقدر على العلاج، ممن اقتنع بمنهجه الحق المؤيَّد بالوحي؛ فَلِمَ التخاذل والتراجع إذن؟!

وقد تحدث الفاروقي في الإطار ذاته، وفي سياق الكلام السابق نفسه، حول سبب آخر من أسباب تراجع الأمة وتخلفها وانحرافها؛ وهو: ما وقعت فيه الأمة من ممارسات المستبدِّين من الحكَّام، الذين سخَّروا طاقات الأمة، لتحقيق أهوائهم وأهدافهم؛ فقال منبِّهاً الأمة إلى ذلك، وكأن الجماهير سمعت شيئاً من كلامه في هذه الأيام: "وقعت الأمة الإسلاميَّة المحرومة من اليقظة الجماهيريَّة، غنيمة للسلاطين المستبدين، الذين سَخَّروا الطاقات لخدمة مصالحهم وأمجادهم، مما جعل اهتمام الجماهير بشؤون الأمة أمراً بغيضاً وكريهاً."[1]

ث- قصدت الشريعة إلى تعزيز مبدأ المحاسبة بكل أنواعها لإسعاد البشريَّة، واستقامة أخلاقها ظاهراً وباطناً، وإقامة العدل المطلق:

مبدأ المحاسبة في الشريعة مبدأ عظيم يحقق مقاصد التشريع القائدة إلى الصلاح والاستقامة بكل أشكالها، سواء كانت المحاسبة من نوع محاسبة المرء لنفسه؛ ليستقيم خُلُقُهُ وتكون نفسه من نوع النفس اللوامة التي تقود صاحبها للخير؛ وبصلاح النفس يصلح المجتمع. أو كانت المحاسبة من نوع محاسبة الإنسان لغيره؛ ليستقيم المجتمع ويتحصَّن من شرور الآخرين؛ فالعقوبة والمحاسبة علاج جذري للجريمة. أو كانت المحاسبة من نوع محاسبة الخالق للمخلوق، في دار الجزاء، تلكم هي المحاسبة الأخروية، التي إذا اعتقدها المرء خاف يوم الحساب فاستقام.

فالمحاسبة بأبعادها الثلاثة تقود للاستقامة، وهي سبيل التغيير والإصلاح، وتمايزٌ بين طبقات البشر وأعمالهم، وكل ذلك يعود بالسعادة على الفرد والمجتمع، في الدنيا والآخرة. يقول الفاروقي في النوع الثاني والثالث من المحاسبة: "إن الإنسان حر مسؤول؛ فالالتزام الأخلاقي مستحيل دون المسؤولية

(١) المرجع السابق، ص١٥.

عنه والحساب عليه. وبالقرآن الكريم آيات كثيرة تؤكد على مسؤولية الإنسان؛ منها على سبيل المثال: قول الله تعالى: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء: ٢٣]... وما لم يكن الإنسان سيسأل ويحاسب بشكل ما، في موضع ما، عن أفعاله؛ فإن إمكانية إساءته استخدام الحرية الممنوحة له يظل احتمالاً راجحاً؛ فالحساب وتحمل المسؤولية شرط ضروري للالتزام الأخلاقي، أو للإلزام الأخلاقي.

ومبدأ المحاسبة متأصِّل في طبيعة المعياريَّة ذاتها، وهذا هو ما يعنيه الإسلام بيوم الحساب، يوم يقوم الناس لرب العالمين. ومبدأ محاسبة الله تعالى للبشرية جمعاء يوم القيامة مبدأ قرآني كلي مطلق، يمكن القول بأنه: يمثل الأساس الذي يقوم عليه النظام الأخلاقي الديني الإسلامي برمته، وليس المهم أن تتم تلك المحاسبة في هذه الحياة الدنيا مواكبة للفعل الإنساني في مكانه وزمانه، أو في الآخرة، أو في الدنيا والآخرة معاً. والمهم هو أنه لا مفر من الحساب، وأن القاعدة أن طاعة الله تعالى بمعرفة أوامره، وتجسيد نموذجه في أرض الواقع، هو سبيل الفلاح والسعادة واليسر. وفي المقابل؛ فإن معصية الله تعالى تفضي بصاحبها إلى البوار والضنك وسوء المنقلب."[1]

ويقول -أيضاً- في النوع الثالث من المحاسبة: "وجوهر مفهوم المجتمع الأمة؛ هو: المساواة بين كل البشر، في ظل علاقةٍ مع الله تعالى قائمةٍ على العهد وليس الوعد... والحساب والجزاء الربانيان مؤكَّدَان وعادلان، ومحلهما الأخير هو يوم الفصل، يوم الدين، يوم يقوم الناس لرب العالمين."[2] ويقول في النوع الأول من المحاسبة: "لن يكون لنا سبيل على أعدائنا، إلا بالانتصار على أنفسنا أولاً وأخيراً؛ أي: بمحاسبتنا لأنفسنا."[3] ويقول في جانب ضرورة الاعتناء

(١) الفاروقي، **التوحيد؛ مضامينه على الفكر والحياة**، مرجع سابق، ص٥١-٥٢.

(٢) المرجع السابق، ص١٨.

(٣) الفاروقي، **حساب مع الجامعيين**، مرجع سابق، ص٤٨.

بالأخلاق، وهو نوع من المحاسبة: "أين جامعاتنا التي وضعت التنشئة الأخلاقية جنباً إلى جنب التعليم النظري؟ أين هي برامجها التي تثبت ذلك؟ وأين أخلاق الأستاذ، والطالب من سلم أولوياتها."[1]

هكذا يقرر الفاروقي مبدأ المحاسبة في أقواله في سياقات عدَّة خصوصاً تلك التي تعنى بإنقاذ الأمة مما هي فيه؛ لأن مبدأ المحاسبة يحقق المراقبة الداخلية التي تسوي بين الظاهر والباطن؛ تلك التسوية المؤدية إلى استقامة النفس والسلوك، لتكون عقيدة يعتقدها المرء؛ فيحدث التكامل، ولا يطغى جانب الروح على جانب الجسد.

فمحاسبة النفس تكون قبل العمل وبعده، تكون قبل العمل لئلا يبادر المرء للعمل حتى يتبين له رجحانه على تركه. قال الحسن البصري: "رَحِمَ اللَّهُ عَبْداً وقف عِنْد هَمِّه؛ فَإِنَّه لَيْسَ مِنْ عَبْدٍ يَعْمَلُ حَتَّى يَهُمَّ، فَإِنْ كَانَ خَيْراً أَمْضَاهُ، وَإِنْ كَانَ شَرّاً كَفَّ عَنْهُ."[2] وتكون محاسبة النفس بعد العمل على أنواع ثلاثة: الأول: محاسبتها على طاعة قصَّرت فيها من حق الله تعالى، فلم توقعها على الوجه الذي ينبغي. الثاني: أن يحاسب نفسه على كل عمل كان تَرْكُهُ خيراً له من فعله. الثالث: أن يحاسب نفسه على أمر مباح لِمَ فعله، وهل أراد به الله تعالى والدار الآخرة فيكون رابحاً، أو أراد به الدنيا وعاجلها، فيخسر ذلك الربح ويفوته الظفر به.[3]

---

(١) المرجع السابق، ص٥٥.

(٢) ابن أبي شيبة، أبو بكر عبد الله بن محمد العبسي الكوفي. **مصنف ابن أبي شيبة**، تحقيق: محمد عوامة، د.م: دار القبلة، د.ت، كتاب: الزهد، باب: كلام الحسن البصري -رحمه الله-، الأثر رقم: ٣٦٣٣٥، انظر أيضاً:

- البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخراساني، **شعب الإيمان**، تحقيق: عبد العلي عبد الحميد حامد، الرياض: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند، ط١، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م، فصل في محقرات الذنوب، الأثر رقم: ٦٨٩٤.

(٣) فريد، أحمد. **تزكية النفوس**، د.ن، د.ت، ص٤٦-٤٨.

Open Kan.com

قال الحسن البصري: "إِنَّ الْمُؤْمِنَ قَوَّامٌ عَلَى نَفْسِهِ يُحَاسِبُ نَفْسَهُ لِلَّهِ، وَإِنَّمَا خَفَّ الْحِسَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى قَوْمٍ حَاسَبُوا أَنْفُسَهُمْ فِي الدُّنْيَا، وَإِنَّمَا شَقَّ الْحِسَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى قَوْمٍ أَخَذُوا هَذَا الْأَمْرَ عن غَيْرِ مُحَاسَبَةٍ."[1]

جـ- قصد الشارع من وضع الشريعة إفهام المكلفين تكاليفه:

لا شك في أن الشريعة وصلت إلينا بأيسر الطرق وأوضحها؛ حتى يفهمها المكلفون فهما صحيحاً كما أراد الشارع عز وجل؛ فأبانت الشريعة عن مرادها بألفاظ سهلة يفهماها كلُّ مكلَّف، ما دام أن فهمه جارٍ على أسس العربيَّة، والحس العربي؛ ليكون اللفظ قالباً للمعنى غير مقصود لذاته، وإذا وقع الخلل في معرفة المراد من الألفاظ، وقع الخلل في فهم التكاليف، وها هنا تكمن الخطورة. وهذا مقصد عظيم من مقاصد الشريعة الإسلاميَّة؛ إذ إن القرآن الكريم نزل بلغة العرب، ومن أراد فهم نصوصه فلا غنى له عن اتِّباع معهود العرب في خطاباتهم، ولا يصح العدول عنه في فهم الشريعة، وقد كان من معهود العرب: أنهم لم يتعبَّدوا بالألفاظ، إذا حافظوا على المعاني.[2] وفي ذلك يقول ابن القيم: "والألفاظ لم ترد لذواتها، ولا تعبدنا بها، وإنما هي وسائل إلى المعاني."[3]

---

(١) ابن أبي شيبة، **مصنف ابن أبي شيبة**، مرجع سابق، كتاب: الزهد، باب: كلام الحسن البصري، مرجع سابق، الأثر رقم: ٣٦٣٥٧. انظر أيضاً:
- النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي. **السنن الكبرى**، تحقيق: حسن عبد المُنعم حسن شلبي، بيروت: مؤسسة الرسالة، كتاب: المواعظ، الأثر رقم: ١١٨٥٨.
- ابن المبارك، عبد الله بن المبارك بن واضح المرزوي أبو عبد الله، **الزهد**، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، بيروت: دار الكتب العلمية، ص١٠٣، الأثر رقم: ٣٠٧.
- أبو نعيم، أحمد بن عبد الله الأصبهاني. **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**، بيروت: دار الكتاب العربي، ط٤، ١٤٠٥هـ، ج ٢، ص١٥٧.
- ابن أبي الدنيا. **محاسبة النفس**، د، ن، د.ت، الأثر رقم: ١٧.

(٢) الشاطبي، **الموافقات**، مرجع سابق، ج٢، ص١٠١، ١٣١.

(٣) ابن القيم، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب الجوزية. **إعلام الموقعين عن رب العالمين**، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، بيروت: دار الجيل، ١٩٧٣م، ج١، ص٢١٨.

وحول هذا المقصد يبين الفاروقي أن بعض الفئات من المسلمين لم يفهموا مقصود الشارع من وضع التكاليف؛ ففهموها على وجهٍ منغلق أدى إلى لحوق الوهَنِ بالمسلمين، وألحقَهم بركب الجامدين، العاجزين عن التغلغل في شؤون الأمة، وتحمل المسؤولية نحوها، وعدم فهم الآخر والخوف منه، وبعضهم فهم بعض أحكام الشريعة على وجه متناقض متعارض.

قال الفاروقي: "وتتمثَّل عقلانيَّة الإسلام في احتكامه إلى غاية ما لدى العقل الإنساني من قدرة نقديَّة. ولا يخشى الإسلام من الدليل المضاد، ولا يقبل التأسيس على أسرار، ولا يقيم دعواه على مشاعر باطنيَّة، أو على شكوك أو لا يقين جواني ما، أو على أماني أو رغبة في أن تكون الحقائق على غير ما هي عليه في الواقع؛ فدعوى الإسلام عامة وعلنيَّة، تخاطب العقل، وتسعى إلى إقناعه بالحقيقة، وليس إلى قهره بما هو فوق قدرته على الفهم."[1]

وقد رأى الفاروقي أن عقلانيَّة الإسلام تتحقق من خلال ثلاثة أسس؛ هي: رفض جميع ما لا يتطابق مع الواقع، وهذا يحمي المسلم من الظن. وإنكار التناقضات المطلقة، وهذا يحمي المسلم من التناقض البسيط من جهة، ومن التناقض الظاهر من جهة أخرى. والانفتاح على الأدلة الجديدة أو المناقضة، وهذا يحمي المسلم من الحَرفيَّة والتعصب، والنزعة المحافظة المؤدية إلى الركود، كما يميل به إلى التواضع الفكري؛ فيحمله على إلحاق عبارة: الله أعلم بما يثبت أو ينكر من قول.[2] وهذا الذي سماه الفاروقي: عقلانيَّة الإسلام؛ يقصد به: أن الإسلام دين يتوافق مع مقتضيات العقول، ولا يوجد تعارض بين الدين، والعقل، والواقع.

---

(١) الفاروقي، **التوحيد؛ مضامينه على الفكر والحياة**، مرجع سابق، ص٨٩.

(٢) الفاروقي، إسماعيل راجي، والفاروقي، لوس لمياء. **أطلس الحضارة الإسلامية**، ترجمة: عبد الواحد لؤلؤة، الرياض: مكتبة العبيكان، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط١، ١٩٩٨م، ص١٣٧ (بتصرف يسير).

فإذا راعى الإنسان الواقع الذي يعيش فيه؛ فقد فهم التكاليف فهماً صحيحاً ونجا من سوء الظن؛ لأن الإسلام صالح لكل زمان ومكان لا يتعارض مع أي واقع احتاج إلى أحكامه. وإذا تفطَّن المسلم إلى عدم وجود التناقض والتعارض مطلقاً في نصوص الشريعة، نجا من أن يزلَّ به الفكر، فيقع في التناقض البسيط الناتج عن الجهل بطبيعة النصوص الشرعيَّة، وكذلك ينجو من التعارض الظاهري بين النصوص الذي يقوم في ذهن طلاب العلم والمجتهدين. وإذا أدرك المسلم الاستنباطات الجديدة،(١) أو ما يُناقضه به مستدِلٌ آخر، من استدلالاتٍ وجيهةٍ يحتملها النص؛ فينجو المسلم من الجمود على حرفيَّة النصوص، والمحافظة على ألفاظها دون التأمل في معانيها البعيدة، أو ما يُسمَّى بمعنى المعنى.

وكل ما سبق مما دعا إليه الفاروقي: يؤكد على ضرورة سعة الأفق في التعامل مع النصوص، وإنزالها في واقعها الصحيح المطابق، وإفساح المجال أمام المخالف وإعذاره؛ كما هو منهج الأئمة المتَّبعين في تعاملهم مع النصوص، وفي مراعاتهم لخلاف بعضهم بعضاً، هذا من جهة، ومن جهة أخرى الإقرار مسبقاً بعدم وجود التعارض والتناقض بين نصوص الشارع الحكيم؛ لأن من فهم شيئاً من الشريعة على وجه متناقض، أو لم يهْدِه علمه لحل التعارض

(١) نقول: الاستنباطات الجديدة، ولا نقول الأدلة الجديدة كما قال الفاروقي؛ لأن الأدلة الشرعيَّة محصورة في الكتاب والسنة وبقيَّة مصادر التشريع التي ذكرها الأصوليون في كتبهم، ولا يوجد أدلة تسمى جديدة غير ما ذكره الأصوليون، حتى دليل الإجماع ودليل القياس، وبقيَّة الأدلة التبعيَّة؛ إنما هي مستقاة من القرآن والسنَّة ومتفرعة عنهما، بل هي طرق فهم مختلفة لنصوص القرآن والسنَّة، إلا أن يكون مراد الفاروقي بالأدلة الجديدة: الاستنباطات الجديدة؛ فذلك أمر لا ينتهي، ولكل زمان ومكان استنباطاته الجديدة الخاصَّة به المؤصَّلة على الكتاب والسنَّة. أو قد يكون مقصود الفاروقي بالأدلة الجديدة: الأدلة العقليَّة؛ وهنا كان وجود الدليل العقلي مثار جدل بين الأصوليين؛ فبعضهم أنكر وجود الأدلة العقليَّة؛ لأن العقل لا يُنتج أدلة. وبعضهم قال بوجود الدليل العقلي، وأن ما أرشد إليه العقل من الأمور الواضحة المكشوفة، يكون دليلاً بحد ذاته. والصواب هو التوسط بين القولين، أو محاولة توجيههما؛ بأن يُقال: العقل بحد ذاته لا يكون دليلاً أبداً، إنما هو أداة فقط لفهم الأدلة؛ لأن العقول متفاوتة؛ لكن قد يرشد العقل إلى نوع من الاستدلال لا ترفضه الشريعة؛ لأن الشريعة لا تتعارض مع بدهيَّات العقول.

الظاهري بين النصوص، أو لم يستطع أن يستخرج حُكماً مناسباً للواقع من القرآن والسنَّة؛ فلم يفهم الشريعة وتكاليفها من هذه الجهة، لم يتحقق لديه هذا المقصد المهم من مقاصد الشريعة؛ لذلك حتى يتحقق هذا المقصد وَضَعَ العلماء قواعد لحل التعارض، ووضعوا قواعد تجعل المكلف منفتحاً على الواقع؛ لئلا ينغلق على النصوص فيفهمها بحرفيَّة مقيتة، وكل هذه التأصيلات الأصوليَّة تخدم هذا المقصد الشريف، وتجعل مَنْ تأملها وفهمها تأصيلاً وتطبيقاً؛ يفهم التكاليف على الوجه الذي وُضِعَتْ له، وعلى مراد الله تعالى وشرعه.

حـ- قصدت الشريعة الإسلاميَّة إلى استقلاليَّة الشخصيَّة المسلمة؛ ليُمكَّن للأمة، ويعاد إليها مجدها:

حرصت الشريعة الإسلاميَّة على إبراز شخصية المسلم الحق في الميادين كافة، وأكدت على الأخذ بمقوماتها ومعالمها الإسلاميَّة الأصيلة؛ لتُعرف الصورة الصادقة عن الإسلام الحق، ولتنهض بالبشريَّة وتسعدها وتعزها. وبقدر تمسّك الأمة المسلمة بثوابت شخصيتها الإسلاميَّة، بقدر ما تحقق أسباب عزتها وكرامتها، وإذا تخلَّت عن تلك الثوابت اضمحلَّت شخصيتها، وضعفت هيبتها، وهانت في ميزان الأمم؛ حتى تكون الغلبة لأعدائها عليها.

ينوّه الفاروقي بضرورة استقلاليَّة شخصيَّة المسلم، وبروز هويَة الإسلام والمسلمين في كل القضايا والأمكنة، دون تقليد لأحد سواء الغرب أو غيرهم، في معرض كلامه حول مواجهة الفكر الغربي للمسلمين بالعلوم الطبيعيَّة الحديثة، في مجال الحروب، وما ألحقوه بالمسلمين من هزائم فادحة عندما احتل نابليون مصر؛ فما كان من المسلمين إلا أن استنكروا تلك العلوم الطبيعية الحديثة بادئ الأمر، ثم ما لبثوا أن اغترُّوا بتلك العلوم، فابتعثوا أبناءهم، لتعلمها في الغرب باندفاع، مغالين في الدفاع عنها، دون أن يفهموا النظريَّات المعرفيَّة والفكريَّة المترتِّبة عليها، والحال أنهم بعد مئتي عام من هذا الاندفاع لم يظهر بينهم نابغة كتب في فلسفة العلوم الطبيعيَّة شيئاً يُذكر؛

فيقول مستنكراً حال المسلمين هذا، وداعياً لاستقلال الشخصيَّة الإسلاميَّة: "هذا من أشد غرائب المسلمين غرابة، ولا يُفسر إلا بتنازل أولئك العلماء عن الإسلام، بوصفه وجهة نظرٍ شاملة، والتخلِّي عنه، إلى ما هو شخصي بحت، بل وعزل الإسلام إلى نطاق الضمير تماماً، كما عُزلت المسيحيَّة في الغرب."[١]

ويصف الفاروقي حال التعليم والمناهج التي تدرَّس في بلاد المسلمين، وما أصابها من تبعيَّة لغير المسلمين، وتنصُّلٍ من شخصيتها الإسلاميَّة، قائلاً: "إنَّ المواد والمناهج التي تدرَّس؛ هي نسخ معادة مما يدرس في الغرب، مع خلوِّها من التصور الذي يشكل القوَّة الدافعة وراءها في بلادها الأصيلة، ودون هذا التصور تصبح هذه المواد والمناهج من عوامل الضعف... إنها تجعل من خريج جامعاتنا في العالم الإسلامي، إنساناً شديد الغرور مع ضحالة معارفه وسذاجة تفكيره."[٢]

ويزيد الوصف قائلاً: "لقد غُشيت الرؤية الإسلامية برؤية أجنبية وفدت إلينا مع الغزاة المستعمرين. ولـمّا رحل المستعمر بقيت هذه الرؤية الأجنبية، بل أصبحت أشد خطراً. وبدا المسلمون لعدة أجيال غير قادرين على التخلص منها... إنك لتراها واضحة في كل مكان: في المؤسسات المستوردة، وفي انتشار اللغتين الإنجليزية والفرنسية بينهم، وفي تصميم مكاتبهم وبيوتهم ومدنهم، وفي برامجهم الترفيهية... في المناهج الاقتصادية والسياسية التي يتبعونها، وفيما يعتنقون من أفكار عن الحقيقة والطبيعة والإنسان والمجتمع... وكان العامل الأول في انتشار هذا التصور الأجنبي هو النظام التعليمي؛ فقد شعَّبوه إلى نظامين: نعتوا أحدهما بـ: (الحديث)، والآخر بـ: (الإسلامي)... هذا التشعيب يعدّ

---

(١) الفاروقي، إسماعيل. "التحرك الفلسفي الإسلامي الحديث"، **مجلة المسلم المعاصر**، عدد٣٩، ص١٥.

(٢) الفاروقي، إسماعيل. "أسلمة المعرفة"، **مجلة المسلم المعاصر**، عدد٣٢، ١٩٨٢م، ص١١٣.

صورة مصغرة لانحطاط المسلمين. وما لم يتم علاج هذا الأمر والتخلص منه، فسيظل يدمر جهد كل مسلم يبذله لإعادة بناء "الأمة" ولتمكينها من أداء "الأمانة" التي ائتمنها الله تعالى عليها."[1]

هكذا ختم الفاروقي كلامه في هذا التغريب الذي أصاب الأمة، داعياً إلى سرعة العلاج، وإلى ضرورة هيمنة العقيدة الإسلاميَّة على نظام التعليم، ثم قال في موضع آخر: "ولإيجاد نظام تعليمي تهيمن عليه العقيدة الإسلاميَّة، وتسيطر على سائر جوانبه الروح الإسلاميَّة، يجب أن يدمج نظام التعليم الديني، مع نظام التعليم العام، بما يتبعه من مدارس وجامعات، ويجب أن يُعطى هذا النظام الموحَّد مزايا كلا النظامين."[2]

٢- أثر المقاصد في معالجة المستجدات عند الفاروقي

أ- قصدت الشريعة إلى المزاوجة بين التفقه في الدين والواقع؛ لاستثماره في معالجة القضايا الحديثة:

المزاوجة بين العلم والواقع هو الهدف الحقيقي من العلم؛ فإنما جعل العلم من أجل العمل، وليس العلم مطلوباً لذاته طلباً مجرداً، وقد قرن القرآن الكريم بين العلم والعمل والسلوك؛ وكذلك السنة، حتى إن علماء العقائد جعلوا العمل والسلوك جزءاً من الاعتقاد الصحيح، وقد كان الصحابة ﷺ لا يتجاوزون عشر آيات حتى يعملوا بها، وكان الإمام أحمد كلما روى حديثاً عمل به؛ حتى حدَّث ذات مرة أن النبي ﷺ ائتزر؛ فقطع الحديث ودخل بيته وأتَّزر وأكمل حديثه مؤتزراً، وهو منهج الأئمة المتبعين من بعد نبي المرسلين ﷺ؛ فهذا عمر ﷺ ينادي التجار حاثاً لهم على العمل؛ فقال: "لا يبيع في سوقنا إلا من قد تفقه في

(١) الفاروقي، إسماعيل. **أسلمة المعرفة المبادئ العامة وخطة العمل**، ترجمة: عبد الوارث سعيد، الكويت: دار البحوث العلمية، ١٩٨٣م، ص٣.

(٢) الفاروقي، إسماعيل. **إسلامية المعرفة**، بيروت: دار الهادي، ط١، ٢٠٠١م، ص٥٨.

الدين؛"[1] ليعرف التاجر ما يأخذ وما يذر من الحلال والحرام، موافقاً لما أمر الله تعالى ورسوله ﷺ به، مخالفاً لما نهى الله ورسوله ﷺ عنه.

والعمل الصحيح مُوصِلٌ إلى سمو النفس ورفعتها، قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩﴾ [الشمس:٩].

وعن عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مُعَاوِيَةَ الْغَاضِرِيَّ حَدَّثَهُمْ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: "ثَلاَثٌ مَنْ فَعَلَهُنَّ فَقَدْ طَعِمَ طَعْمَ الإِيمَانِ: مَنْ عَبَدَ اللَّهَ وَحْدَهُ فَإِنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ، وَأَعْطَى زَكَاةَ مَالِهِ طَيِّبَةً بِهَا نَفْسُهُ رَافِدَةً عَلَيْهِ فِى كُلِّ عَامٍ، وَلَمْ يُعْطِ الْهَرِمَةَ وَلاَ الدَّرِنَةَ وَلاَ الشَّرَطَ اللاَّئِمَةَ وَلاَ الْمَرِيضَةَ، وَلَكِنْ مِنْ أَوْسَطِ أَمْوَالِكُمْ؛ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يَسْأَلْكُمْ خَيْرَهُ، وَلَمْ يَأْمُرْكُمْ بِشَرِّهِ، وَزَكَّى عَبْدٌ نَفْسَهُ"؛ فَقَالَ رَجُلٌ: مَا تَزْكِيَةُ الْمَرْءِ نَفْسَهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: "يَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ مَعَهُ حَيْثُ مَا كَانَ."[2]

---

(١) الترمذي، أبو عيسى بن سورة بن موسى. **جامع الترمذي، الجامع المختصر من السنن عن رسول الله ﷺ ومعرفة الصحيح والمعلول وما عليه العمل**، إشراف ومراجعة: صالح بن عبد العزيز بن محمد بن إبراهيم آل الشيخ، دمشق-الرياض: دار الفيحاء، دار السلام، ط١، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، كتاب: البيوع، باب: ما جاء في فضل الصلاة على النبي ﷺ، حديث رقم: ٤٨٧، وقال: "حديث حسن غريب".

(٢) البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن موسى. **سنن البيهقي الكبرى**، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مكة المكرمة، المملكة العربية السعودية: مكتبة دار الباز، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م، كتاب: الزكاة، باب: لاَ يَأْخُذُ السَّاعِى فِيمَا يَأْخُذُ مَرِيضاً وَلاَ مَعِيباً وَفِى الإِبِلِ عَدَدُ الْفَرْضِ صَحِيحٌ، حديث رقم ٧٠٦٧. انظر أيضاً:

- البغوي، أبو القاسم عبد الله بن محمد. معجم الصحابة، تحقيق: محمد الأمين بن محمد الجكني، الكويت: مكتبة دار البيان، د.ت، حديث رقم ١٧٥٩.
- الطبراني، سليمان بن أحمد. المعجم الصغير، تحقيق: محمد شكور محمود الحاج أمرير، بيروت وعمان: المكتب الإسلامي ودار عمار، ط١، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، حديث رقم ٥٥٥.
- ابن أبي عاصم، أحمد بن عمرو بن الضحاك أبو بكر الشيباني. الآحاد والمثاني، تحقيق: باسم فيصل أحمد الجوابرة، الرياض: دار الراية، ط١، ١٤١١هـ/١٩٩١م، ج٢، ص٣٥٠، حديث رقم ١٠٦٢.
- الألباني، محمد ناصر الدين. سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، الرياض: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، ط١، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م، ج٣، ص١٢٠، حديث رقم ١٠٤٦.

فإذا علم الإنسان أن الله تعالى معه أينما كان، وراقب الله تعالى مراقبة صحيحة، زكت نفسه، وطلب العلم لأجل أن يعمل به، وانعكس ذلك على كل حياته، ففعَّل العلم في كل مناحي الحياة، وهذا أحد مقاصد الإسلام المهمَّة؛ فهو صالح لكل زمان ومكان، واستثمار علوم الدين في كل أمورنا المعاصرة واجب شرعي، لا يتقاصر عنه إلا من عدم فهم الإسلام. يقول الفاروقي في تحقيق هذا المقصد داعياً إلى صلاح النيَّة، وإلى ربط العلم بالعمل وتفعيله في كل شؤوننا: "تأتى الرؤية التوحيدية الإسلامية التي تربط صلاح أي عمل بصلاح النية، ولكنها تربط بين اعتبار أيّة نية صالحة وتجسدها في أعمال صالحة. فلئن كانت النية الصالحة هي تذكرة دخول ساحة العمل الأخلاقي؛ فإن العمل الأخلاقي نفسه هو تذكرة بلوغ مرضاة الله تعالى والجنة. فالإسلام يربط بين الإيمان المؤسس على النية، والعمل الصالح. ومؤسسة العمل الصالح؛ هي: خلافة الأمة، التي لا موضع فيها للقعود والعزلة، حتى لو كانت الغاية منهما هي تنمية ما بالنفس من خصال أخلاقية محمودة."[1] وقد أكد الفاروقي على ضرورة الربط بين الإيمان والعمل، عن طريق الشراكة بينهما؛ أي: إقناع الآخر بالمشاركة في العمل الأخلاقي، الذي تتأسس عليه الكلمة السواء، والمجتمع الأمة، القائم على إجماع النية والإرادة والعمل.[2]

وللفاروقي كلام كثير في عمليَّة المزاوجة بين العلم والعمل، وأنه لا يجوز الإيغال في أحدهما على حساب الآخر، وللأسف هو واقع كثير من المسلمين خصوصاً أولئك المتأثِّرون بثقافات الغرب، حتى أصبحت العلوم الشرعيَّة التي تدرَّس تحت المسميات الضخمة؛ كالدراسات العليا، والدراسات المقارنة، والدراسات المتقدمة، خالية من مضمونها وروحها؛ لأن الخلل جاء في التطبيق الذي جُعلت كل هذه الدراسات من أجله. قال الفاروقي: "أوغلنا في الدراسات والمقارنات الفقهيَّة، وأمعنَّا في تناولنا للقرآن الكريم، دون أن نتدبره، وفي

(١) الفاروقي، **التوحيد**، مرجع سابق، ص١٧.

(٢) المرجع السابق، ص١٧-١٨ (بتصرف).

الحديث الشريف، دون إدخاله في معالجة قضايانا الحديثة؛ فلذلك اتُهمنا، وفي اتِّهامِنَا شيء من الصحة، بأننا لا نحاول التفقُّه بالدين من أجل الحياة، وكأن الإسلام، دين يتنكَّر للحياة؛ كالمسيحيَّة والبوذيَّة."[1]

وكلام الفاروقي هذا فيه قدر كبير من الصحة؛ غير أنه ما زال فينا العلماء العاملون، والمثقفون الذين أحسنوا استثمار نصوص الكتاب والسنَّة، وطبقوهما على الواقع تطبيقاً حسناً جميلاً، ووضعوا فيه الحلول لمشكلات الأمة الحديثة، والمعالجة لألوائها وأمراضها، ولعل للفاروقي عذره؛ إذ إنه في أغلب انتقاداته يتوجَّه نحو المسلمين الذين يعيشون في الغرب، ولم يقدروا على إقناع الغرب بقضايا دينهم؛ لأنهم انهزموا من أنفسهم.

ب- قصدت الشريعة إلى تَرْك التقليد؛ فلا قدسيَّة إلا لنصوص الوحي:

تَرْكُ التقليدِ أمرٌ مقرر في الشريعة، إلا لمن لا يقدر إلا عليه، ومن هنا أوقع التقليد الأمة في التعصب والجمود، وموت الإبداع، سواء تقليد المسلمين لموروثاتهم من غير الوحيين، أو تقليد المسلمين لغير المسلمين: اليهود والنصارى قديماً، والغرب حديثاً؛ فأخرج التقليد عقولاً مظلمة خاوية لا تقوى على الجديد والتجديد؛ فتراجعت الأمة بسببه زمناً؛ وقد قالوا قديماً: "لا يُقلد إلا عصبي أو غبي." وظهرت نزعة ترك التقليد ومحاربته في كتابات الفاروقي بشكل كبير، وكأن الأمر كان همَّاً كبيراً على عاتقه، يود لو تمكَّن من إنقاذ الأمة منه؛ لأنه جر الويلات، والتخلف، والرجعيَّة، على الأمة، وهي دعوة منه تشبه دعوة العلماء الربانيين عبر العصور الإسلاميَّة الذين ما فتئوا يدعون جاهدين إلى نبذ التقليد، حتى امتلأت كتب أصول الفقه بالأبواب الخاصَّة التي عقدتها لموضوع الاجتهاد والتقليد؛ موضِّحة ضوابط التقليد وحالات جوازه؛ لئلا تنتشر سلبياته كما انتشرت عبر عصورٍ طويلة، حتى حَرَّم كثير من الفقهاء الاجتهاد ودعَوا إلى إغلاق بابه؛ فانتكست الأمة زمناً.

---

(١) الفاروقي، **حساب مع الجامعيين**، مرجع سابق، ص٥٣.

قال الفاروقي مبيناً أن النقد يصح أن يوجَّه لكل الفهم البشري للنصوص، بخلاف النصوص أنفسها: "ولئن كان الوحي غير قابل للنقد؛ فليس كذلك فهم المسلمين له، ولا مجمل المعرفة الإنسانيَّة المنبثقة عنه، أو المعتمدة عليه... فإذا وجد أن التراث غير ملائم، أو غير مصيب؛ فعلينا أن نصححه بجهودنا الحاضرة."[1] وقال في جوانب القصور في المنهجيَّة التقليديَّة؛ حينما أصبح المسلمون يتصرفون بردَّةِ فعلٍ على الهجمة التريَّة: "ولما ظنوا أن عالمهم الإسلامي قد قُضِيَ عليه بالهلاك بالغوا في "المحافظة" وأرادوا أن يصونوا شخصيتهم وإسلامهم الذي هو أثمن ما يملكون، وذلك بتحريم كل إبداع، والدعوة إلى الاستمساك الحرفي بنصوص "الشريعة". وكانوا في تلك الفترة قد أعلنوا إغلاق باب "الاجتهاد"؛ وهو المصدر الرئيس للتجديد في القانون، ولما كانوا قد عدّوا "الشريعة" قد بلغت حد الكمال فيما كتبه السلف؛ فقد أعلنوا أن كل خروج على ما كتبوه بدعة، والبدعة أمر غير مرغوب فيه بل مذموم. وهكذا انتهى الأمر بتجميد "الشريعة" على الصورة التي قدمتها مدارس الفقه."[2]

وفي تقليد المسلمين للغرب يقول: "لقد شهد النصف الأخير من القرن الرابع عشر موجة هائلة من الوعي الإسلامي عمت العالم كله، فضلاً عن عدد من الخطوات المهمة اتخذتها أجزاء من هذه الأمة على طريق التحرر الذاتي. ورغم هذه الخطوات إلى الأمام، فإنَّ هذا القرن نفسه قد شهد انتكاسة شديدة، تمثَّلت في اندفاع عام عند المسلمين؛ لتقليد الحضارات الأخرى. هذا الاندفاع لم يحقق هدفه في أي مجال كان، بل إنه نجح في تجريد الطبقة العليا من المجتمع الإسلامي من إسلامها، وأن يوهن من عزيمة الباقين... لقد غُشِيَتْ الرؤية الإسلامية برؤية أجنبية وفدت إلينا مع الغزاة المستعمرين، ولما رحل

(١) الفاروقي، **أسلمة المعرفة**، مرجع سابق، ص٢١.

(٢) الفاروقي، **أسلمة المعرفة "المبادئ العامة وخطة العمل"**، مرجع سابق، ص٣٥.

المستعمر بقيت هذه الرؤية الأجنبية، بل أصبحت أشد خطراً، وبدا المسلمون لعدة أجيال غير قادرين على التخلص منها."[1]

وعدّ التقليد من أعراض المرض الذي لحق الأمة: على الصعيد الثقافي والديني؛ فقال: "إن انحطاط المسلمين الذي دام قرونا قد أدى إلى انتشار الأمية، والجهل، والخرافة بينهم... وهذه الشرور قد أدت بالمسلم العادي إلى أن "ينعم" بعقيدة قائمة على التقليد الأعمى، وأن يتجه نحو الحَرْفية، والشكلية القانونية، أو أن يعبِّد روحه لشيخه... وهذا بدوره قد ربَّى فيه استعداداً غير قليل للانهزامية... فحين فرض العالم الحديث نفسه عليه، أُصيب بالذعر نتيجة لضعفه العسكري، والسياسي، والاقتصادي؛ فسارع لذلك إلى ضَرْبٍ من الإصلاح الجزئي ظناً منه أن ذلك سيُعينه سريعاً على أن يستعيد الأساس الذي ضاع منه، فاتَّجه -دون وعى منه- إلى تقليد الغرب، أغراه بذلك نموذج التجربة الغربية الناجح، وناصِحُوه من الغربيين أو المستغربين."[2]

ت- قصدت الشريعة من الوسطية والاعتدال مع الحوار؛ الوصول إلى التغيير:

الوصول للتغيير هدف إسلامي سام، ومقصد عظيم من مقاصد الإسلام، وقد كانت الوسطيَّة والاعتدال، مع الحوار والمجادلة بالتي هي أحسن، إحدى أهم الطرق الموصلة إلى التغيير؛ ابتداءً من تغيير داخل النفس، وتوسطاً بتغيير الآخر، وانتهاءً بتغيير الأمة والمجتمع. والتوسط والاعتدال مطلوبين في الأمور والقضايا كافة؛ التي منها الوسطيَّة والاعتدال بين الانغلاق والتقليد، والحرفيَّة، وكذلك بين رفض ما عند الآخر، وقبوله، وأيضاً بين إبراز إيجابيات الإسلام، ونقد الذات وتطبيقنا للإسلام. قال تعالى في الامتنان على أمة الإسلام؛ بأن جعلها أمةً وسطاً: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وقال النبي ﷺ، حاثّاً على الاعتدال والتوسط حتى في التدين: "إياكم

(١) المرجع السابق، ص٣.

(٢) المرجع السابق، ص١٣.

والغلو في الدين؛ فإنما هلك من قبلكم بالغلو في الدين."[1] فالغلو مرفوض حتى في أمور الدين؛ لأن كلمة: (الغلو) لغة تدل على معنى: الزيادة والارتفاع، ومجاوزة الحد؛ يقال: غلا فلان في الأمر والدين: تشدد فيه، وجاوز الحد وأفرط؛ فهو غالٍ.[2] وهي اصطلاحاً تأخذ معنى: مجاوزة الحد بأن يزاد في الشيء؛ حَمْده أو ذمه على ما يستحق.[3] والغلو في الدين: هو الذي يُنسب إلى الدين، وليس من الدين، بل الدين قد نهى عنه؛ كما في الحديث السابق.

وقد طالب النبي ﷺ المسلمين بالتدين، والتعمق فيه؛ لكن دون غلو، بل بتوسط واعتدال كما في حديث أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "إن هذا الدين متين؛ فأوغلوا فيه برفق."[4] ومعنى قوله: "متين"؛ أي: صلب شديد. وقوله: "فأوغلوا" أي: سيروا. وقوله: "برفق"؛ أي: من غير تكلف، ولا تحمِّلوا أنفسكم ما لا تطيقونه؛ فتعجزوا وتتركوا العمل، والإيغال: السير الشديد، والوغول: الدخول في الشيء.[5] والمعنى العام للحديث: بالغ في العبادة، لكن اجعل تلك المبالغة مع رفق؛ فإن الذي يبالغ فيها بغير رفق ويتكلف من العبادة

(١) أحمد، **المسند**، مسند عبد الله بن العباس بن عبد المطلب ﷺ، مرجع سابق، ص١٨٨، حديث رقم ١٨٥١.

(٢) مجمع اللغة العربية. **المعجم الوسيط**، الإدارة العامة للمعجمات وإحياء التراث، إستانبول: دار الدعوة، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، ج٢، ص٦٦٠، مادة (غلا).

(٣) ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس. **اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم**، تحقيق: محمد حامد الفقي، القاهرة: مطبعة السنة المحمدية، ط٢، ١٣٦٩هـ، ص١٠٦.

(٤) أحمد، **المسند**، مسند المكثرين، مسند أنس بن مالك، مرجع سابق، ص٩٢٠، حديث رقم ١٣٠٨٣.

(٥) ابن عبد البر، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر النمري. **الاستذكار الجامع لمذاهب فقهاء الأمصار وعلماء الأقطار**، بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م، ج٢، ص٨٨. انظر أيضاً:
المناوي، عبد الرؤوف. **فيض القدير شرح الجامع الصغير**، القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى، ط١، ١٣٥٦هـ، ج٢، ص٥٤٤.

فوق طاقته يوشك أن يمل حتى ينقطع عن الواجبات؛ فيكون مثله مثل الذي أجهد دابته في سفره حتى أعياها، وعطبت ولم يقض وطره, وقد قيل: مَن استطال الطريقَ ضعف مشيه.[١]

وهذه هي أجواء الوسطيَّة والاعتدال التي هي نتيجة صحيحة للحوار؛ لأن غياب الحوار معناه أنَّ كل فرد أو فريق أو جماعة، سيظل أسيراً لرؤيته الشخصيَّة، ولا يرى غيرها، ومن خلال الحوار يمكن تحويل الرؤى الشخصيَّة وتجميعها في رؤية مشتركة واحدة، ومن ثم الاتفاق على تحقيق تلك الرؤى على أرض الواقع، ولن يُصبح الحوار مجدياً وفاعلاً إلا إذا كان حواراً علميًّا، وأخلاقيًّا، مستوفياً لشروطه الموضوعيَّة، مفضياً إلى نظريَّات فكريَّة، وإلى نتائج علميَّة مؤثِّرة قابلة للتطبيق في الواقع؛ وبذلك تُجسِّد كلمة (الحوار) المعنى البديل للتعسف والحيف، في ظل الحريَّة التي تعيشها غالبيَّة شعوب العالم الحالي؛ لأنها تُمثِّل لغة الوسطيَّة والاعتدال للغالبيَّة التي تسعى نحو حلول واقعيَّة تراعي مطالب الأكثريَّة.[٢]

وقد كان الفاروقي يحمل على عاتقه هم تغيير واقع الأمة الإسلاميَّة في الوقت الحاضر، تغيير واقعها بجوانبه المختلفة كافة؛ وإيجاد الإنسان المؤهَّل لهذا التغيير، ويرى أن القدرة على التغيير تتمثَّل في: تغيير الإنسان لنفسه وأمثاله من البشر؛ والمجتمع، والطبيعة، والمحيط الذي يعيش فيه؛ توصلاً لتحقيق النسق الإلهي في نفس الإنسان؛ كما في هذه الأمور جميعاً.[٣] يقول الفاروقي في

---

(١) المناوي، **فيض القدير**، مرجع سابق، ج٢، ص٥٤٤، انظر أيضاً:
- ابن القيم, محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله الجوزية، **بدائع الفوائد**, مكة المكرمة: مكتبة نزار مصطفى الباز، ط١، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م، ج٣، ص٧٣٢-٧٣٣.

(٢) الحازمي، خليل بن عبيد. **الحوار الوطني ودوره في تعزيز الأمن الوطني للمملكة العربيَّة السعوديَّة**، مركز الملك عبد العزيز للحوار الوطني، إدارة الدراسات البحوث والنشر، ط٣، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م، ص٤، ٨ (بتصرف).

(٣) الفاروقي، **أطلس الحضارة الإسلاميَّة**، مرجع سابق، ص١٣٣ (بتصرف).

ضرورة التغيير من الداخل لنصل إلى تغيير الأمة، وأن من شرط ذلك تحقيق التوحيد الحق الخالص: "إن أمتنا بحاجة إلى تفعيل سنة الله تعالى في تغيير ما بالنفس باتجاه التوحيد الخالص، بوصفه شرط تغيير حالها."[١]

ويلخِّص الفاروقي أمر التغيير السنني الرشيد الفعَّال في مقولة: "إنَّ الأمة كانت ولا تزال بحاجة إلى حركة تغيير إصلاحية نابعة منها تنقِّب في عمقها، وتتحلى بالوسطية، وتعير الجوانب الروحية اعتباراً أكبر، وتعاير البعد المادي ذاته من مرجعية توحيدية، وتتجاوز مستوى العمل النخبوي، إلى مستوى تأهيل الأمة كلها؛ لتمثِّل مشروع الإصلاح الحضاري."[٢]

ومما قال الفاروقي -أيضاً- في تحقيق مبدأ الوسطيَّة في كل شيء، وأنه يؤدي إلى تحقيق خلافة الله تعالى في الأرض: "ومن شأن استعمال الإنسان لكل شيء على الوجه الذي أراده الله، بوسطية لا إفراط فيها ولا تفريط، محاكاة جنة الله على الأرض في حدود الاستطاعة الإنسانية."[٣]

وقد أقام الفاروقي منطلقاته في التغيير والتصحيح على إدارك المسلمين لجوهر الإسلام وروحه ونواته؛ وهو: التوحيد؛ فقد ألّف فيه كتاباً حافلاً يعدّ أهم كتاباته وأكثرها عمقاً وفائدة؛ وأقام دراسته في كتابه "التوحيد؛ مضامينه على الفكر والحياة" على ثلاث أوليَّات عدّها شرطاً لتفهُّم الطرح المقدم للتوحيد والوقوف على مسوّغاته، معتبراً التوحيد مضموناً للآصرة الوثقى بين الإسلام والوجود كله بما فيه ومن فيه، وهو سر الإصلاح والتغيير، ولا نجاح يرتجى لأي حركة إصلاحية لا تنطلق منه:

أولى هذه الأوّليَّات: أن الأمة الإسلامية العالميَّة أمَّة الوسط تَغَيَّرَ حالها، وضعف إسهامها في العصر الحديث؛ إذ باتت أمة الوسط تعيش اليوم في وضع

(١) الفاروقي، **التوحيد؛ مضامينه على الفكر والحياة**، مرجع سابق، ص٥.

(٢) المرجع السابق، ص٥.

(٣) المرجع السابق، ص١٨.

تعيس لا تحسد عليه، بالمقارنة مع غيرها من الأمم؛ فأمة الوسط الشاهدة على غيرها من الأمم، كما وصفها الله تعالى بقوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾[البقرة: ١٤٣]، غدت على عكس ما كلَّفها الله تعالى بأن تكون، أمة يتكالب عليها كل من هب ودب من الأمم، تَكَالُبَ الأكلة على القصعة. وباتت أمةً متواضعةَ الإسهام في العصور الحديثة، وإن كانت ذات ماضٍ عتيد قدمت فيه إسهامات مهمة في المعركة التي تخوضها الإنسانية على هذه الأرض ضد المرض والفقر والجهل والرذيلة والبغضاء والعقوق.(١)

أما الأوّلية الثانية؛ فهي: أن سنة الله في التغيير؛ هي: تغيير ما بالنفس؛ وهي سنة إلهية ثابتة لا تعرف التبديل ولا التغيير، تُمثِّل القانون الحاكم لتاريخ الإنسان على الأرض؛ قررها الله بقوله: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الأنفال:٥٣]، وقوله تعالى: ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾ ﴾ [الرعد: ١١](٢)

وقد أكَّد الفاروقي على أن هذه السُّنة في التغيير؛ هي باب السر في فشل كل محاولات الإصلاح التي جربتها الأمة الإسلاميَّة حتى الآن، موجِّهاً الأمة إلى إدراك حقيقة هذه السُّنة؛ لترجع إلى عهدها الأول، ومبيِّناً أنه من هذا المنطلق نجحت بعض حركات الإصلاح السلفيَّة نسبيًّا -مقارنة بحركات الإصلاح الأقرب عهداً- حينما أفلحت في إعادة الأمة للعمل بهذه السنة في شبه جزيرة العرب، وفي شمال إفريقيا وغربها، وفى شبه القارة الهندية؛ لكنهم وقعوا في خطأ قاتل؛ هو: أنهم قدَّموا رؤيتهم الإصلاحيَّة لبقيَّة الأمم وللعالم الخارجي، دون أن تُجَهَّزَ تلك الرؤية لتمثِّل حركتهم الإصلاحيَّة تمثيلاً واقعيًّا، ويتعاطى

(١) المرجع السابق، ص٢٧-٢٨ (بتصرف يسير).

(٢) المرجع السابق، ص٢٨ (بتصرف يسير).

العالم معها تعاطياً واعياً، وكانت النتيجة هي الإخفاق النسبي لتلك المساعي جميعاً، رغم حسن نوايا أصحابها.[١] قائلاً عقب هذا التوجيه والبيان: "فروّاد الحركات الإصلاحية الأولى عالجوا إشكالية تدهور مكانة الأمة بالتنقيب في عمق نفسها، وتلمسوا حلولاً أكثر جذرية للداء، واستحضروا الوسطيَّة بوصفها صفة أساسية لها، ووضعوا الغلو بذلك في مكانه الصحيح."[٢]

وبالمقابل انتقد الفاروقي بقيَّة مساعي الإصلاح التي قامت بها حكومات الدول القوميَّة في العالم الإسلامي التي انصبَّت جهودهم على متطلبات الأمة الماديَّة، وتغافلت عن احتياجاتها الروحية مع أنها هي الأهم؛ لأنها لم تلتزم بتلك السنة الإلهيَّة في التغيير؛ وأنها غربيَّة المنشأ لم تدرك العلة في مأزق الأمة الحقيقي، مع تقليد الغرب في الاستهانة بالدين؛ فأخذت تبني صروحاً على رمال،[٣] قائلاً فيهم: "وكانت النتيجة أن تلك الحركات زادت المجتمع الإسلامي خبالاً، بانطلاقها من مدخل القومية التي هي فيروس غربي حقير، يعيد داء الشعوبية إلى جسد الأمة القديم، الذي عانت منه الأمة وتصدت له على مدى تاريخها الطويل."[٤]

وأما الأوّلية الثالثة؛ فهي: أن الأمة الإسلامية العالمية الواحدة، لن تقوم لها قائمة، ولن تستعيد وصف الأمة الوسط، إلا بالإسلام. هذه الأوليَّة هي التي أسس عليها الفاروقي صرح دراسته في كتاب "التوحيد"؛ إذ إن تطبيق الإسلام بشموليَّة، وفهمه الفهم الصحيح مع الالتزام بتطبيق هذا الفهم على الواقع؛ هو الشرط الأساس لقدرة الإنسان على أن يكون خليفة الله في أرضه، وتصرفه على نحوٍ مسؤول على مر الزمان واختلاف المكان؛ ليكون محركاً لعجلة التاريخ

---

(١) المرجع السابق، ص٢٨ (بتصرف يسير).

(٢) المرجع السابق، ص٢٨.

(٣) المرجع السابق، ص٢٩ (بتصرف).

(٤) المرجع السابق، ص٢٩.

الإنساني؛ فيحقق النموذج الإلهي لما ينبغي أن تكون عليه حياة الإنسان على هذه الأرض.[١]

ومن هذا المنطلق يتجه تدخل المسلم في إعادة صياغة الزمان والمكان، إلى إعادة بنائهما، وليس إلى الهروب منهما، ولا إلى التخلص منهما، ولا إلى إشباع إرادته الخلاقة، بل إلى الاستجابة لإرادة الله تعالى في الكون. وتأسيساً على ذلك تصير عملية إعادة البناء عبادة لله وطاعة له، وليست عملية غزو للطبيعة، ولا قهرٍ ولا تحدٍ لها، ويتحصَّن المسلم بتلك الرؤية الكونية من الإصابة بأيٍ من آفاتٍ ثلاث: ادعاء القدرة على قهر الطبيعة، الإصابة بغرور القوة حالة نجاحه، الإصابة باليأس وبالإحساس بالعجز حالة فشله.[٢]

هذه الأوّليَّات الثلاث التي بنى عليها الفاروقي كتابة الرائع الماتع، كتاب: "التوحيد؛ مضامينه على الفكر والحياة"، خاتماً الكلام على تلك الأوليَّات بكلام مهم يبيِّن مدى عمق فهم الفاروقي للإسلام ومقاصده العظام؛ فقال: "ولباب ما يسعى إليه هذا الكتاب؛ هو: تعريف الشباب المسلم برؤية الإسلام للوجود، على أمل التحرك بهم مسلحين بالوعي بتلك الرؤية على طريق الإصلاح الحقيقي للنفس، وتمكينهم من تحديث معطيات الرؤى الفكرية المبكرة التي قدمها رواد الحركة السلفية العظام؛ من أمثال: محمد بن عبد الوهاب، ومحمد إدريس السنوسي، وحسن البنا، ونظرائهم. وترمي هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على العلاقة الوثقى بين الإسلام وكل مجالات الفكر والنشاط الإنسانيين، مدللة على أن التوحيد وحده هو الركيزة النواة التي ينبغي تأسيس أي برنامج إصلاحي في أي مجال كان عليها؛ فالتوحيد هو جوهر الإسلام ونواته. ولا نجاح يرتجى لأي حركة إصلاحية لا تنطلق منه."[٣]

---

(١) المرجع السابق، ص٣٠-٣١ (بتصرف).

(٢) المرجع السابق، ص٣٠-٣١ (بتصرف).

(٣) المرجع السابق، ص٣١-٣٢ (بتصرف).

وحينما تكلم الفاروقي عن وسطيَّة الإسلام، بيَّن عمليَّة التوازن الضروريَّة لتحقيق هذه الوسطيَّة؛ فقال: "فالإسلام هو دين الوسطية. يقول الله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ وَمَا جَعَلۡنَا ٱلۡقِبۡلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيۡهَآ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِۚ وَإِن كَانَتۡ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٤٣ ﴾ [البقرة: ١٤٣]. فالإسلام جامع بين العام والخاص، والكلي والمحدد، والشكل والمضمون، والواحد الكلي المتناغم والتعددية، والفردي والفريد، وهذا هو مصدر قوته. وهو يزودنا بالمبدأ العام، مقروناً بالسماح لنا بالخروج عليه عند الضرورة الملجئة؛ أي: حينما نكون أمام التضحية بقيمة أعلى، بذات السعي لتحصيل القيمة المتضمنة في ذلك المبدأ العام... وإذا كان مسلمو القرون الأخيرة لم يستخدموا تلك المفاتيح، وأبقوا أنفسهم حبيسي تلك الغرف؛ فإن مسؤولية ذلك تقع على كاهلهم وحدهم. وفيما عدا مبدأ التوحيد لا يوجد أي مبدأ آخر يتصف بالحرمة المطلقة؛ فالإسلام هو دين التوازن والوسطية."[1]

ويقرر الفاروقي أن التغيير يكمن في العودة للإسلام، تحت مظلة التوحيد -كما سبق بيانه-، فيقول: "لا عودة للأمة إلا بالإسلام. فبه تتخلص من داء الشعوبية الذي يفترسها جسداً وروحاً. والناظم القومي -وفق خبرته التاريخية- مفلس، ما لم يكن ناظمه ومظلته؛ هي: التوحيد الإسلامي."[2] ويقيم الفاروقي حجته على ذلك من ثلاثة عشر مدخلاً، يبرهن عبرها على التوالي على أن التوحيد؛ هو: جوهر الخبرة الدينية، وجوهر الحضارة، ومبدأ التاريخ، ومبدأ المعرفة، ومبدأ الغيب، ومبدأ الأخلاق، ومبدأ النظام الاجتماعي، ومبدأ الأمة، ومبدأ الأسرة، ومبدأ النظام السياسي، ومبدأ النظام الاقتصادي، ومبدأ النظام العالمي، ومبدأ الجمال.[3]

---

(١) المرجع السابق، ص٢١٢-٢١٣.

(٢) المرجع السابق، ص٦.

(٣) المرجع السابق، ص٦.

يقول الفاروقي في أساس علة الأمة الإسلاميَّة: "إن أساس علَّة الأمة الإسلاميَّة؛ هو: اعتلال فكر الأمة، وفي منهجيَّة فكر الأمة، وما يترتَّب على ذلك من اعتلال نظام التعليم السائد فيها، مما يشكل تربة خصبة للداء؛ ففي المدارس والكليَّات يُلقن ويُكرَّس الاغتراب والابتعاد عن الإسلام وتراثه، ونمطه في الحياة؛ بحيث صار نظام التعليم الحالي هو المختبر الذي تُصاغ فيه تركيبة الشباب المسلم، ويجري تغذية وعيهم على أسس غربيَّة باطلة."[1]

وحينما ذكر المبادئ التي تكمن في لبّ التوحيد، وأن منها: القدرة الإنسانية وقابلية الطبيعة للتطويع، قال: "بما أن للكون غايةً بوصفه من صنع الله تعالى، المنزه عمله عن أي عبث أو لعب، والثابت له التسوية والكمال؛ فإن الخليقة لا بد أن تكون طيِّعة وقابلة للتحول وللتغيير في جوهرها وهيكلها وشروطها وعلاقاتها بالفعل الأخلاقي الإنساني، بوصفه شرطاً لتضمين النموذج أو القصد الإنساني في الطبيعة، أو تجسيدها له. ويصدق ذلك على كل الخلائق، بما فيها الطبيعة النفسية، والجسدية، والروحية للإنسان. فكل مخلوق ميسر لما خلق له، والخليقة بعمومها مؤهلة لتحقيق ما ينبغي أن يكون، أو بالأحرى تجسيد المثال الإلهي المطلق في حدود الاستطاعة في الفضاء المكاني والزماني الذي تعيش فيه الإنسانية على هذه الأرض."[2]

ويقول الفاروقي في وصف حال العالم الإسلامي في التعليم والـمُلك؛ مشيراً إلى الرجوع لما كان عليه السلف في عصورهم الأولى من تحقيق خلافة الله في الأرض، وجاهزيتهم دوماً لمعاني تلك الخلافة: "ولا يوجد بلد إسلامي واحد يضع نفسه في حالة تعبئة وجهوزية دائمة كتلك التي اتسم بها مجتمع المدينة المنورة في العهد النبوي. وربما تكون السمة الأسوأ للعالم الإسلامي المعاصر؛ هي: إفلاسه في حقل التربية والتعليم. فلا توجد بأي بلد إسلامي مؤسسة واحدة تحتضن الطفل المسلم من سن الخامسة وترعاه إلى أن تسلمه

(١) الفاروقي، **إسلاميَّة المعرفة**، مرجع سابق، ص٤٧.

(٢) الفاروقي، **التوحيد**، مرجع سابق، ص٥٠.

للأمة، وقد استوت قابلياته الكامنة على سوقها. وليس لدى أمتنا مؤسسة تدريب تتولى تدريب المسلم على كيفية تحويل العالم والعمران الإنساني، من الـمُلك الإنساني المادي العضوض، إلى صورة شبيهة بالنموذج الإلهي، بتجذير الوعي بأن تجسيد هذا النموذج الرباني هو الغاية الأخيرة لوجود الإنسان في هذه الحياة الدنيا."[١] ويقول داعياً إلى الحوار مع الآخر الذي هو أحد طرق التغيير، في صدد حديثه عن الأستاذ المسلم الذي تأثَّر بالغرب: "ولم يَسْعَ إلى صياغة المعرفة برؤية إسلاميَّة؛ كما فعل السلف الصالح في حوارهم مع فكر وعلوم الآخرين، وكيف تعلموها وأنتجوا الجديد وفق رؤيتهم الإسلاميَّة؛ لهذا أصبح وغيره مسخاً مشوهاً للأنموذج الغربي."[٢]

وهكذا يرى الفاروقي أن التقليد المتمثل في استنساخ مناهج الغرب؛ التي تدرَّس حاليًّا في مدارس، وكليَّات، وجامعات العالم الإسلامي، دون مناقشة وحوار بنَّاء جعل هذه المواد أداة للتعليم القاصر.[٣]

٣- أثر المقاصد في إعادة صياغة الموروثات الإسلاميَّة عند الفاروقي

أ- قصدت الشريعة إلى إيجاد المجددين في كل عصرٍ وحين؛ لإصلاح ما فسد:

إن المتأمل في الحديث الذي رواه أبو هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ: "إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا؛"[٤] ليجد أن موضوع التجديد عبر العصور، أمر قصدت إليه الشريعة، وحثَّت عليه، ويسر الله

---

(١) المرجع السابق، ص٢٥٩.

(٢) الفاروقي، **إسلاميَّة المعرفة**، مرجع سابق، ص٥٠.

(٣) المرجع السابق، ص٥١ (بتصرف).

(٤) أبو داود، سليمان بن الأشعث بن إسحاق الأزدي السجستاني. **سنن أبي داود**، إشراف ومراجعة: صالح بن عبد العزيز بن محمد بن إبراهيم آل الشيخ، الرياض: دار السلام للنشر والتوزيع، ط١، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، كتاب: الملاحم، باب: ما يُذكر في قرن المائة، حديث رقم ٤٢٩٣.

تعالى له أسباب وجوده؛ ذلكم أن كثيراً من الآفات لا بدّ وأن تُصيب الفكر أو الأشخاص؛ للبعد عن وقت نزول الوحي، ولطول العهد بما كان عليه السلف من العلم والفهم، خصوصاً إذا دخل الدخلاء؛ فحرَّفوا وبدَّلوا بخبثِ طويَّة، أو حاول بعضهم إصلاح ما فسد بحسن نيَّة؛ فأخطأ الطريق، وكلُّ ذلك لم تخلُ منه المجتمعات الإسلاميَّة عبر عصورها المختلفة بعد عصور السلف، خصوصاً في العصر الحديث الذي أدخل فيه الغرب موروثاتهم على الإسلام، أو أُدخلت لهم عن طريق مفكري الإسلام؛ سواءً ممن انبهر بثقافاتهم، أو ممن سايرهم، أو ممن تحداهم لكنه أخطأ الطريق.

ويرى الفاروقي أن: "الأصوليين الذين بلوروا أحكام الشريعة في العصور الوسطى، ووصلوا بها إلى أعلى مستوى من الكمال، حريصون على أن يضمنوا قواعدهم أدق آلية لتجديد الشريعة لنفسها بنفسها. وقدموا للمسلمين كلاً من: التشريع الكامل، وآليات ووسائل تجديده، وجعله أكثر كمالاً، أو الحفاظ على كماله وصلاحيته لكل مكان وزمان."[1]

ومن هنا يظهر استياء الفاروقي من كثير من المحاولات التي واجهت الفكر الغربي، في ميادين العلوم الاجتماعيَّة، والعلوم الإنسانيَّة؛ التي لم يُفلح أكثرها في إصابة الهدف، لا بل كان بعضها أحد معاول هدم الإسلام وتقديمه لقمة سائغة بين يدي الغرب، مفضلين الفكر الغربي على الفكر الإسلامي.

لأجل ذلك ظهرت دعوات الفاروقي المتكررة إلى إنشاء معهد عالمي يرعى جانب الفكر الإسلامي، ويقدمُ حلولَ الإسلام لكل القضايا التي تحدث في العالم؛ بوصفه نوعاً جديداً من نشر فكر الإسلام، وبطريقة تتناسب مع العصر الحديث، ومن أقواله في ذلك: "ولا عجب أن ليس للدعوة الإسلاميَّة حتى الآن، معهداً يرعى الجانب الفكري، أو يخطط على مستواه، متبنياً موقف الإسلام

(١) الفاروقي، **التوحيد**، مرجع سابق، ص٢١١-٢١٢.

الدقيق، مما يحدث في العالم من فكرٍ وعملٍ."[1] ولا شك في أن هذه الدعوة من الفاروقي دعوة نحو المنحى التجديدي الذي قَصَدَتْ إليه أصول الإسلام؛ فوظيفة المجدد إعادة صياغة الموروثات الإسلاميَّة بما يتناسب مع الواقع والعصر، وليست وظيفته إعادة النظر في هذه الموروثات؛ فذلكم سلوك مغرق، يتعارض مع أصول الإسلام، ويتناقض مع شموليته وصلاحيته لكل زمان ومكان مهما تقلَّبت الأحوال، وتطور الآخرون.

لذلك بنظرة فاحصةٍ لما حاوله المفكرون الإسلاميون لمواجهة الفكر الغربي، ينظر الفاروقي في تلك الجهود، وينبِّه الأمة إلى أدوارها وأقسامها، ومدى إصابتها وإخفاقها، حتى يبني المسلمون على المصيب منها، ويتجاوزون المسيء، ولا شك في أن هذا منه -رحمه الله تعالى- محاولة للتجديد الفكري السليم، المستقى من عصر السلف وروحهم. وأشار الفاروقي إلى نوعين من هؤلاء؛ مبيناً رأيه فيهما؛ فالنوع الأول: المفكرون الذين انقسموا إلى قسمين: قسم تجنَّى على الفكر الإسلامي، وقسم ساير الفكر الغربي عن حسن ظن. والنوع الثاني: المتحدُّون، الذين تحدوا الفكر الغربي، وهم أيضاً على قسمين: قسم لم ينجح في تحدي الفكر الغربي. وقسم نجح في ذلك.

فأما المفكرون الذين تجنَّوا على الفكر الإسلامي؛ فقد تأثروا بالفكر الغربي، مع قلة وعيهم بالحضارة الإسلاميَّة، وجوهرها الذي هو التوحيد؛ فكان ولاؤهم للغرب، لا للإسلام وحضارته، مرتكبين خطأً فاحشاً؛ وهو عدم إدراكهم للتفاوت الكبير بين الدين الإسلامي، والدين المسيحي، ومن هؤلاء: طه حسين، وعلي عبد الرازق، وبعض الشعراء كصلاح عبد الصبور، ونزار قباني، وغيرهم، وقد دعا الفاروقي للرد على هؤلاء، وتألم لعدم وجود من يُعطيهم حقهم في الإجابة عليهم؛ فقال: "ومن المؤسف أننا لم نُعْطِ هؤلاء حقَّهم في الإجابة عليهم، وتفريغ مذاهبهم؛ إذ ما زالت آراؤهم السقيمة

(١) الفاروقي، **التحرك الفلسفي الإسلامي الحديث**، مرجع سابق، ص١٥-١٦.

متفشِّية بيننا، ولم تفلح في اقتلاعها من جذورها برغم إساءتها إلى ديننا، وعقائدنا، وحضارتنا وتراثنا."[١]

وأما المفكرون الذين سايروا الفكر الغربي؛ فهو يشمل معظم المفكرين الإسلاميين، ويضم عدداً كبيراً من حاملي الدعوة الإسلاميَّة في الوطن العربي منذ أن رفع لواءها المرحوم حسن البنَّا؛ ومنهم: الزركلي، والطهطاوي، والأفغاني، ومحمد عبده، ومحمد إقبال، وغيرهم، وهؤلاء سايروا الفكر الغربي عن حسن ظن منهم. وحسن الظن هذا هو ما جعل أصحاب هذا التيار في غفلة عن نشر رسالة الإسلام، وبيان مواقفها تجاه ما يحدث في العالم من فكرٍ وعمل؛ ولسان حال الفاروقي هنا يقول: إن حسن الظن مع عدم العمل النافع الذي يرتقي بالإسلام والمسلمين، لا يُجدي، ويجعل المسلمين يتخلَّفون عن ركب الفكر والحضارة.[٢]

هكذا هم أصحاب القسمين السابقين في مجال العلوم الإنسانيَّة، في نظر الفاروقي، أما في العلوم الاجتماعيَّة؛ فواقع العالم الإسلامي يشهد بأنه لم يُنجز شيئاً فيه؛ فهذه جامعاتنا في جانب علوم الاجتماع، والاقتصاد، والسياسة والجغرافيا والأنثربولوجيا،[٣] تعيش عالة على ما قدَّمه رجالات الفكر الغربي سواء في المادة أو المضمون أو الزعامة، وأيضاً لسان حال الفاروقي يقول: أين فكر المسلمين ومفكريهم ورجالاتهم ومجدديهم في العلوم الاجتماعيَّة؟![٤] فقد قال مقرراً: "إن المسلمين أجدر الناس قاطبة بالاهتمام بدراسة المجتمعات الإنسانيَّة وثقافاتها، وأديانها، وأنظمتها السياسيَّة، والاجتماعية، والفنيَّة، وذلك

---

(١) المرجع السابق، ص١٥.

(٢) المرجع السابق، ص١٥ (بتصرف).

(٣) أخرج الفاروقي من جملة العلوم الاجتماعيَّة: علم التاريخ؛ لظهور عناية المسلمين بتاريخهم، ومؤلفاته الكثيرة شاهدة على ذلك، لكنه قرر أنهم ما زال يعوزهم المنهج العلمي النقدي.

(٤) الفاروقي، **التحرك الفلسفي الإسلامي الحديث**، مرجع سابق، ص١٥ (بتصرف).

تبييناً لسنة الله في خلقه، وتحضيراً للدعوة الإسلاميَّة الواجب عليهم تجاه هذه المجتمعات."[1]

أما المتحدّون الذين لم ينجحوا في تحدي الفكر الغربي؛ فهم القلة القليلة التي وعت التوحيد، وتحلَّت به عقيدة وفكراً، بفطرتها وحدسها: بوصفه جوهراً للإسلام ديناً وحضارة، وأدركوا التفاوت الكبير بين الدين الإسلامي، والدين المسيحي، وهم الذين تبيَّنوا كيف نشأت الإنجازات الإسلاميَّة القديمة، وما أضافه التوحيد إليها.[2]

ولكنّ الفاروقي وجَّه نقده لهذا القسم الذي لم ينجح في تحدي الفكر الغربي، من جهة أنهم وَعَوْا التوحيد بفطرتهم وحدسهم، ولم يَقْوَ هذا الحدس، وتلك الفطرة على إبداء خَوَافي التوحيد القائمة في كل منهج فكري فتحه أجدادنا، وكل إنجاز حضاري أتمّوه؛ فبقيت رؤيتهم التوحيدية التي انطلقوا منها لتحدي الفكر الغربي قاصرة متناقضة مع نفسها، لم يدركوا من خلالها جوهر التوحيد. والحل عند الفاروقي هو بضرورة الرجوع إلى ما قدَّمه السلف، وأنه لا يجوز لنا المبادرة كما لو لم يكن لنا سلف.[3] وأهميَّة نقد ما نقله المستشرقون عن الفكر الإسلامي ونقضه،[4] ودعا إلى أن يتنبَّه هؤلاء الإسلاميون من المفكرين، إلى خطأ أساتذتهم الغربيين؛ لأنهم انتهجوا منهج الفلسفة الإسلاميَّة في القرون الوسطى، ولفظوها في العصر الحديث، ابتداءً بديكارت، مقررين عدم صلاحيتها للعصر الحديث، وعدم مسايرتها للنقد والتحليل؛ فلا فائدة ترتجى منها، وعليه قرروا: أن على طالب العلم الحديث الابتداء من حيث ابتدأ الغرب، ليصل إلى السمو والرفعة.

---

(١) المرجع السابق، (بتصرف).

(٢) المرجع السابق، ص١٥-١٦ (بتصرف).

(٣) المرجع السابق، ص١٩.

(٤) المرجع السابق، ص٢٠.

أما المتحدّون الذين نجحوا في تحدي الفكر الغربي؛ فهم قلة -أيضاً- يمثلهم مصطفى عبد الرازق، وتلميذه علي سامي النشَّار الذي سار على نهج شيخه؛ فقد تصدى هذان لهذا الهجوم المكشوف على تراثنا؛ سواءً فيما سوَّده المستشرقون، أو أذنابهم وتلامذتهم من المفكرين الإسلاميين؛ إذ أرجع عبد الرازق العلم إلى مكانه الصحيح، وقدَّم الدين عليه؛ فهو المكان الثانوي الذي يستحقُّه العلم بالنسبة للتراث الفكري بوصفه كلاً، ثم بيَّن أن الفلاسفة الإسلاميين لم يُصيبوا في دفاعهم عن الفلسفة؛ وأن الإمام ابن تيمية قد وجَّه النقد إليهم مقيماً حججه عليهم، واضعاً العلوم الشرعيَّة في الصدارة، مميزاً بين العلوم الأصوليَّة والعلوم التطبيقيَّة؛ فعلم أصول الفقه، وعلم أصول الدين علمان عقليان نقديان، يتحريان الحقيقة ويوصلان إليها، ولا تقلُّ عقلانيتهما ونقديتهما عن أيَّةِ فلسفة، ولا عن أي علم طبيعي أو رياضي؛ لأن تراثهما هو التراث المنهجي المجرد في الفكر الإسلامي، وهو الأعظم والأكبر نفعاً. أما النشَّار؛ فهو للأسف من القلة الذين تخرجوا على عبد الرازق، وهو الوحيد الذي تابع شيخه في إحصاء العلوم، ونقد المنطق الأرسطي، وإحلال المنطق اللغوي العربي مكانه، واعتبار الفكر الأصولي بمثابة الرأس والمنهج للتراث الفكري الإسلامي كله. وهذا ما تبنَّاه المعهد العالمي للفكر الإسلامي في أمريكا؛ إذ دعا لاستناف المسيرة التي سار عليها مصطفى عبد الرازق، وتلميذه النشَّار، بشكل أوسع؛ لأنه يعمل على جبهة عالميَّة استقبلت جميع حقول العالم الغربي والإسلامي تحت ما يسمى بـ: (أسلمة المعرفة)، يشاركه في ذلك ثلة من العلماء والمفكرين، والأساتذة، فعمدوا إلى دراسة التراث الغربي وغربلته ونقده، من المنظور الإسلامي، آخذين بالنافع منه، متخلين عن الخبيث فيه، مع بلورة التراث الإسلامي وإحيائه، وإعادة تقديمه للعالم.[1]

تلمسّنا اهتمام الفاروقي البالغ في استثمار فكرة التجديد في الإسلام، وأنها أحد المقاصد الشرعيَّة العظيمة التي تكفل إعادة موروثات الإسلام إلى أصلها

(١) المرجع السابق، ص١٨-٢٠ (بتصرف).

الأصيل، وركنها الركين، الدين والوحي، الذي انبثق منهما جوهر الحضارة الإسلاميَّة وروحها، ألا وهو التوحيد؛ والربط دائماً بالعصور الفاضلة التي دلتنا على المنهج الإسلامي الأصيل، التي قدَمت لنا أسس الفهم والاستنباط والتفكير، تلك هي عصور السلف، التي من اعتزَّ بها نجا وسَلَكْ.

وهذا الاعتزاز هو ما جعل القسم الأخير ينجح في تحدي الفكر الغربي، دون بقيَّة الأقسام التي غزا بعضها الفكر الغربي إلى قعر دورها، وضحك على بعضها فأحسنت فيه الظن، وتعامل بعضها مع الفكر الغربي بأصل فطرته وحدسه، فلم يَقْوَوْا على إدراك روح التوحيد وجوهره؛ فلم يصلوا إلى شيء من التجديد، وتفعيلاً لما قام به القسم الأخير من نجاح، لا بد من متابعته، وإكمال فكرة التجديد من بعده؛ تلك هي المتابعة التي أنجحت الفاروقي في تقديم المعهد العالمي للفكر الإسلامي للأمة، وتحقيق بعض ما كان يرنو إليه، إن هو بقي سائراً على الطريق بالهمَّة نفسها، مع الاعتزاز بروح السلف، والتمسك بما أوصلنا إليه علماء الإسلام من السمو والرفعة، وإكمال المشوار من ورائهم وعلى هديهم النابع من روح القرآن والسنة، وجوهر التوحيد.

ب- قصدت الشريعة إلى نشر عالميَّة الإسلام للعالم أجمع؛ لإخراج الناس من العبوديَّة إلا لله تعالى:

من حِكَم الشريعة وأسرارها نشر عالميَّة الإسلام للعالم أجمع؛ توصلاً للمقصد العظيم؛ وهو: إشراك بقيَّة العالم في السعادة التي يشعر بها المسلمون؛ لتحقيقهم معنى العبوديَّة لله تعالى التي أنشأت فيهم الروح إلى جانب المادَّة؛ فمزجت بينهما معطية كلاً حقه، ولقد ربَّى الإسلام أفراده على حب الخير والنفع والحسنات للآخرين، وعلى عدم الاستئثار بالخير للنفس، ومحبَّة تعديته للآخرين، وتعبيدهم لله وحدة، لا للمادة ولا للإنسان، ولا للهوى والشهوة. يقول الفاروقي حول نوعيَّة الأمة التي ينشدها الإسلام وأنها الأمة العالميَّة التي تجاوزت كل مظاهر ضيق الأفق والانحصار في جهة

أو جماعة أو اتجاه: "وجوهر البعد الإسلامي هنا ليس نشدان الأمة العالمية، فلقد عرف العالم قديماً وحديثاً مساعي لإقامة أمة عالمية، نجح بعضها، ولم يحالف التوفيق بعضها. أما الجديد الذي يأتي به الإسلام هنا؛ فيتعلق بنوعية الأمة التي ينشدها: أمة عالمية من نوعية خاصة لا تتمركز حول العرق، ولا تنحصر في مجال دون آخر، ولا في مكان ولا زمان ولا قوم، بل تكون أمة أخرجت للناس حرة كلية عالمية، رسالتها إخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد."[1] ويقرر أن رسالة هذه الأمة العالميَّة لا تتحقق إلا بنشر الإسلام، قائلاً: "بيد أن من واجب كل مسلم أن يدعو إلى الإسلام، ويسعى إلى إقامة الأمة، في البلد الذي يقيم به، ويعمل على نشر حِكَم الشريعة لتكون، هي القانون الحاكم في الأرض."[2] وهذه إحدى أهداف إنشاء المعهد العالمي للفكر الإسلامي؛ فمن أهدافه: تبليغ رسالة الإسلام للعالم أجمع، وتصحيح صورة الإسلام -ما أمكن-، خصوصاً لدى الغرب.

وهنا يأتي دور أسلمة المعرفة عند الفاروقي التي خصص لها كتابين ومقالة تحت هذا العنوان -أو قريباً منه-؛ فانطلق الفاروقي، ليصحح مسار الأمة من خلال هذه النظريَّة؛ لتكون أمة عالميَّة حقاً، لا مجرد أمة تنظير وتأصيل. فيقول مصححاً مسار الأمة فيما تُنتجه من دراسات؛ لأنه أدرك أن فيه خللاً وقصوراً في معالجة الواقع: "لازم وحتمي لجميع الدراسات، سواء كانت تتصل بالفرد أو الجماعة، بالإنسان أو الطبيعة، بالدين أو العلم، أن تعيد تنظيم نفسها تحت لواء التوحيد... ويجب أن توجه جميعها للالتزام بأمره؛ أي: الالتزام بالنمط الإلهي الذي أوحى به حتى تجلب السعادة والهناء للبشر."[3]

---

(١) الفاروقي، **التوحيد؛ مضامينه على الفكر والحياة**، مرجع سابق، ص٢١.

(٢) المرجع السابق، ص٢٤٢.

(٣) الفاروقي، إسماعيل راجي. **صياغة العلوم الاجتماعيَّة صياغة إسلاميَّة**، الرياض وهرندن: الدار العالميَّة للكتاب الإسلامي، والمعهد العالمي للفكر الإسلامي، رسائل إسلاميَّة المعرفة (٥)، ط١، ١٤٠٩هـ/١٩٩٨م، إعادة الطبع: ١٤١٦هـ/١٩٩٥م، ص٢٥.

ويقول موجِّهاً أجيال الأمة من أصحاب الدراسات العليا؛ رافعاً همتهم، وموسعاً لآفاقهم نحو أمتهم: "إننا حقيقة لدينا مئات الآلاف من حملة الماجستير، وحملة الدكتوراه، ولكن القليل منهم يمكن عدّه من بين هؤلاء الذين لديهم حسن الإدراك بوجود تلك المشكلة المتعلقة بإضفاء الصفة الإسلاميَّة على فروع الدراسة؛ فإن معظمهم قد مر بعمليَّة تامَّة من غسل المخ بوساطة الغرب، حتى إنهم أصبحوا أعداء، ضد إضفاء الصفة الإسلاميَّة."[1] ثم وضع الفاروقي بعد ذلك أربعة إجراءات يجب اتخاذها للخروج من وضعنا الحالي المتسم بالجمود؛ تتلخص فيما يأتي: الأول: تكوين اتحاد العلماء الاجتماعيين الملتزمين بالإسلام. الثاني: أن يربط ذلك الاتحاد نفسه بواحد أو أكثر من الجامعات المسلمة؛ كي تزوده بالموارد الإنسانيّة، وتزوده باكتشافاته وإنجازاته. الثالث: أن يحدد الاتحاد أعضاءه، ويعرِّفهم تراث الثقافة الغربيَّة، إلى جانب تضلعهم في التراث الإسلامي، للقيام بالتفكير الخلاق المتعلق بالأمة. الرابع: تدريب أعضاء الاتحاد، لإدراك الرؤية الخاصَّة بإضفاء الصبغة الإسلاميَّة على العلوم الاجتماعيَّة، ثم تطبيق التدريب على المتخصصين، وتنظيم برامج خاصَّة للإيفاء بحاجة كل عضو، واستكمال ثقافاتهم.[2]

وهكذا أراد الفاروقي من الأمة أن تكون أمة عالميَّة من نوع خاص؛ فقد تقررت عالميَّة الإسلام من قبل، ولكن الأمة لحقها القصور في تحقيق هذه العالميَّة، وعليها أن تُعيد عالميتها عن طريق علومها المختلفة التي فيها الخير والنفع، والأصالة والثبات، وأنه يجب أن تصبغ كل دراساتنا بالصبغة الإسلاميَّة، وأن نخلِّصها من شوائب الغرب التي لحقتها في كثير من جوانبها على أيدي أبنائها، وتركيز الفاروقي على حملة الدراسات العليا ينبثق من كون العلماء والمفكرين هم قادة الأمة، وموجهوها نحو التقدم والرفعة؛ فإن فسدت همتهم وتقاصرت، تخلفت الأمة ورجعت إلى الوراء، وسادها الغرب وسائر الأمم،

(١) المرجع السابق، ص٣٢.

(٢) المرجع السابق، ص٣٣-٣٥.

وهذا ما حدث بالفعل؛ فأين من يعود بالأمة ويرفع من سويتها. لذلك دعا الفاروقي مراراً وتكراراً لأسلمة العلوم التي يقول في بيان المعنى الذي يريده من هذا المصطلح: "إعادة صياغة المعلومات، وتنسيقها، وإعادة التفكير في المقدمات والنتائج المتحصِّلة منها، وتقييم الاستنتاجات التي تم الانتهاء إليها، وإعادة تحديد الأهداف، على أن يكون كل ذلك بطريقة تجعل فروع المعرفة المختلفة تغني التصور الإسلامي، وتخدم أهداف الإسلام."[١]

ت- قصدت الشريعة إلى إقامة مبدأ التصفية والتربية؛ لتغيير المجتمع وبنائه من جديد:

التصفية والتربية[٢] مصطلحان مهمان لإصلاح المجتمع مما علق به من شوائب الجهل والرجعيَّة والتخلف؛ فيصفَّى المجتمع من كل دخيل أو خطأ في التطبيق، ثم يربَّى على الصواب، عبر مراحل زمنية مناسبة لتغييره وبنائه من جديد، وهما المصطلحان المعروفان عند علماء التربية بـ: (التخلية والتحلية)، أما عند علماء الشريعة؛ فيعرفان بـ: (التصفية والتربية).

والتصفية تعني القيام بما يأتي:[٣]

- تصفية العقيدة الإسلامية مما شابها من الشرك والخرافات وتأويل الصفات وتحريفها، ورد الأحاديث العقائدية والآحادية الصحيحة والقول بعدم حجيتها في باب الاعتقاد.
- تصفية الفقه الإسلامي مما علق به من الاجتهادات الخاطئة المخالفة

---

(١) الفاروقي، **أسلمة المعرفة**، مرجع سابق، ص١٣.

(٢) التصفية والتربية تشبه ما يُسمَّى عند علماء أصول الفقه بـ: (السبر والتقسيم)، الذي هو أحد مسالك العلة؛ فالسبر هو الاختبار، والتقسيم هو الاختيار؛ فنسبر الأوصاف الصالحة للعليَّة مختبرين أيها أكثر صلاحية للعليَة، ثم نختار منها الأصلح والأفضل.

(٣) شعبان، محمد بن سرور. **الشيخ الألباني ومنهجه في تقرير مسائل الاعتقاد**، الرياض: دار الكيان، والشارقة: مكتبة ابن تيمية، ط١، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٧م، ص٩٣-٩٧.

للدليل من الكتاب والسنة، ومن الإغراق في أقوال الرجال وآرائهم، وتحرير العقول من آحاد التقليد، وظلمات التعصب.

- تصفية كتب التفسير والفقه والرقائق من الأحاديث الضعيفة، والموضوعة، والإسرائيليات، والمنكرات.
- تصفية الفكر الإسلامي من الشوائب الداخلية من الغرب، وعلومهم الفلسفية التربوية، والفنون والغزو الفكري.

والتربية تعني: تربية الجيل الناشئ على هذا الإسلام المصفى من كل ما ذكر سابقاً تربية إسلامية صحيحة منذ نعومة أظفاره، دون أي تأثر بالتربية الغربية ونظرياتها الزائفة.

ومنهج التصفية غير مقتصر فقط على تصفية العقيدة، والفقه، والتفسير، والرقائق، والسنة من الأحاديث الضعيفة والموضوعة، بل التصفية شاملة لكل ما لحقه الخلل والانحراف عبر العصور والأزمان، ويدخل في ذلك أصول الفقه وما دخلة من علم الكلام، وتصفية التاريخ مما أدخله فيه الوضاعون والكذابون، وتصفية الأخلاق والزهد مما ادّعاه فيه أهل البدع والخرافات، وتصفية معاجم اللغة مما أدخله فيها النحاة الذين سلكوا مسلك المعتزلة، وتصفية سائر أنواع العلوم من الشوائب التي علقت بها.

وقد أشار الفاروقي إلى التصفية والتربية، تحت مسمَّى: (التخلية والتحلية)؛ كما يسميها علماء التربية، وتحت مسمَّى: (الغربلة)؛ كما سماها الفاروقي نفسه؛ فأشار في مقدمة كتابه الكبير "التوحيد؛ مضامينه على الفكر والحياة" إلى أنه بناه على نظريَّة التخلية والتحلية؛ فجعل التوحيد هو جوهر الإسلام ونواته، لا تقوم للإسلام قائمة إلا بتصفية التوحيد مما ليس منه، ثم تربية الأجيال على لب التوحيد وجوهره الصحيح؛ فقال: "وأملي أن يساهم هذا الكتاب في تحقيق هذه الغاية على صعيدَي التخلية ببيان ما ليس من التوحيد في شيء، وعلى صعيد

التحلية ببيان جوهر التوحيد ومضامينه الحقيقية، وأن ييسر الله تعالى سبيل جعل هذه الدراسة وسيلة لتحرك الأمة نحو استيفاء شرط التغيير."[١]

وبموضع سابق من كتاب "التوحيد"، يقول حول بناء التوحيد على نظريَّة التخلية والتحلية: "وبتحليل معرفي موسوعي مقارن تبين الدراسة من ثلاث عشرة زاوية، تفرد التوحيد الإسلامي، وسمو المبادئ النابعة منه على الرؤى الأخرى كافة على صعيدَي: التخلية المحررة للعمران على هذه الأرض من دواعي الفساد والخلل، والتحلية المكرسة لكل دواعي التمكين والصلاح والإصلاح."[٢]

والتصفية والتربية، أشبه ما تكون بعملية الغربلة؛ كما بدا للفاروقي أن يسميها؛ حينما تكلم حول ضرورة غرس الرؤية الإسلاميَّة في التعليم، خصوصاً في المراحل الدراسيَّة الأولى. أما المراحل الجامعيَّة؛ فينبغي أن تفرض فيها دراسة الحضارة الإسلاميَّة؛ ليتعمق إيمانهم بدينهم وتراثهم، وأن يُقام فيها بإسلاميَّة المعرفة الحديثة، وبعد التمكن من العلوم الحديثة، تدمج في البنية الأساسيَّة للتراث الإسلامي، بعد عملية غربلة دقيقة يتم فيها حذف بعض عناصرها وتصحيح وتعديل وإعادة تفسير البقيَّة منها، بما ينسجم ويتماشى مع نظرة الإسلام العالميَّة، وكل ما يُمليه الإسلام من قيم ومفاهيم.[٣]

وقد انطلق الفاروقي في غربلته من المصطلح الذي اشتهر به؛ وهو: (أسلمة المعرفة)؛ مبيِّناً الهدف من هذا المصطلح؛ فقال: "وتستهدف إسلاميَّة المعرفة: تطوير منهجيَّة الفكر الإسلامي وتطهيره مما اعتوره على مر العصور بعد الصدر الأول من انحرافات وفساد، وعزلة وجزئية وجمود، وإعداد الفكر الإسلامي ومنهجيَّته بتراث الأمة السليم، ووصل شرايينه به، وكذلك تمكين الفكر الإسلامي من كل وجوه القدرة والمعرفة الإنسانيَّة السليمة في مجالات الفكر والمعرفة

---

(١) الفاروقي، **التوحيد**، مرجع سابق، ص٣٢ (بتصرف).

(٢) المرجع السابق، ص٣٢ (بتصرف).

(٣) الفاروقي، **إسلاميَّة المعرفة**، مرجع سابق، ص٥٩ (بتصرف واختصار).

كافة أيًّا كانت اجتماعيَّة أو طبيعيَّة أو تطبيقيَّة؛ وذلك لتكوين أساس إسلامي معاصر سليم؛ للعمل الجاد في المجالات الحياتيَّة والحضاريَّة كافة."[1]

ولم يقف الفاروقي في مصطلح: (أسلمة المعرفة)؛ على التصفية من الداخل فقط، أعني: الداخل الإسلامي، بل قصد إلى إقامة منهج التصفية، والتربية في الفكر الغربي، والعلوم الحديثة؛ فمن غير الإنصاف ترك صواب المصيبين.

ويرى الفاروقي بأن "قاعدة بناء إسلاميَّة المعرفة: التمكن والإحاطة بمادة الأصول والنفائس التراثيَّة، والمعلومات الاجتماعيَّة والتطبيقيَّة المعاصرة؛ كما يشمل التمكن من الرؤية الإسلاميَّة، ومنطلقاتها ومفاهيمها الفلسفيَّة والمنهجيَّة، ثم تتبع مرحلة العطاء والإبداع، وفيها تظهر وتزدهر مادة العلوم والمعرفة الإسلاميَّة الحضاريَّة، وهذا معناه: أن إسلاميَّة المعرفة في مسيرة حياة الأمة تمر بمرحلتين؛ هما: إتقان العلوم الحديثة، والتمكن من التراث الإسلامي."[2] وقال في موضع آخر: "إن شباب المسلمين اليوم وفي جامعات المسلمين يتم صبغهم بالصبغة الغربية وعلى أيدي الأساتذة المسلمين. إن هذا الوضع يجب أن يتغير. لاشك في أن على المتخصصين من علماء المسلمين أن يتقنوا العلوم الحديثة كافة، وأن يفهموها حق الفهم، وأن يصبح في حوزتهم وطوع أمرهم كل ما يمكن أن تقدمه من فوائد. هذا شرط ضروري وأولي... يلي ذلك أن عليهم أن يدمجوا هذه المعارف الجديدة في بناء التراث الإسلامي عن طريق الحذف والتعديل، وإعادة التفسير، والتكييف لكل مكوناته، طبقاً لما تمليه قيم الإسلام ونظرته للعالم.

ومن الواجب أن تحدد بوضوح جهة التلاقي والملاءمة بين الإسلام وفلسفة كل علم، أعني مناهجه وأهدافه العليا. كما يجب أن تهيأ المثل الإسلامية. وفي النهاية، عليهم بوصفهم طلائع أن يعطوا من أنفسهم المثل، وأن يعلموا الأجيال

(١) المرجع السابق، ص١٧٠.

(٢) المرجع السابق، ص١٧٣.

الجديدة من المسلمين وغير المسلمين كيف يقتفون خطواتهم ويوسعون من آفاق المعرفة الإنسانية، وأن يكتشفوا المزيد من قوانين الله في الخلق، ويؤسسوا طرقاً جديدة لوضع إرادته وتكاليفه موضع التحقيق في واقع الحياة."[1]

فيما سبق نلاحظ نظرية الفاروقي في الإفادة من العلوم المختلفة، وأنها لا بد أن تقوم على خطوات الغربلة والتصفية والتربية التالية لتكون صالحة للعمل: الإتقان والفهم. والدمج مع الحذف والتعديل. وتحديد جهة التلاقي. وتحقيق القدوة للتوسيع من آفاق المعرفة الإنسانية. واكتشاف مزيد من قوانين الله في الخلق. وتأسيس طرق جديدة لوضع تكاليفه الله عز وجل موضع التحقيق في واقع الحياة.

وفي هذه الخطوات تحقيق للتكامل والتطابق مع مقاصد الفهم وتوسيع الآفاق، التي سبق الحديث عنها، وهي بلا شك تنبني على نظرية التصفية والتربية التي قصدت الشريعة إليها للارتقاء بالإسلام والمسلمين.

وفي سياق آخر يضع الفاروقي الخطوات الآتية للعمل على أسلمة المعرفة، وسماها: أهداف خطة العمل؛ وهي: إتقان العلوم الحديثة. والتمكن من التراث الإسلامي. وإقامة العلاقة المناسبة بين التصور الإسلامي، وكل مجال من مجالات المعرفة الحديثة. والربط الخلَّاق بين التراث الإسلامي والمعرفة الحديثة. والانطلاق بالفكر الإسلامي في المسار الذي يقوده إلى تحقيق سنن الله سبحانه وتعالى على أرضه.[2]

ثم بيَّن أنه إذا أردنا تحقيق هذه الأهداف؛ فعلينا السير في عدد من الخطوات المرتَّبة ترتيباً منطقياً يحدد الأولوية الملائمة لكل خطوة منها؛ وسماها: الخطوات الضرورية لأسلمة المعرفة؛ وهي: الخطوة الأولى: إتقان العلوم الحديثة وتقسيمها إلى فئات. الخطوة الثانية: المسح الشامل للفروع أو التخصصات العلمية. الخطوة

(١) المرجع السابق، ص٣٠-٣١.

(٢) الفاروقي، **أسلمة المعرفة**، مرجع سابق، ص٧١.

الثالثة: التمكن من التراث الإسلامي/ المختارات. الخطوة الرابعة: التمكن من التراث/ التحليل. الخطوة الخامسة: تأسيس مدى الملاءمة بين الإسلام وفروع العلوم الحديثة. الخطوة السادسة: التقييم النقدي للعلم الحديث/ بيان واقع الفرع العلمي.[1]

ثم قال في الخطوة السادسة: "بعد استعراض كل من إسهامات العلم الحديث والتراث الإسلامي، والتعرف على مناهجهما، ومبادئهما، ومشكلاتهما، وإنجازاتهما، ومسحها، وتحليلها، وبعد توضيح العلاقة الخاصة بين الإسلام والعلم وإقامة أسسها، يجب أن نخضع هذا العلم الحديث، لتحليل نقدي من وجهة النظر الإسلامية. وهذه خطوة رئيسة من عملية "أسلمة المعرفة". وواضح أن الخطوات الخمس السابقة تقود إليها وتمهد لها."[2]

ومع تمام هذه الأهداف والخطوات تتحقق عملية التصفية والتربية (الغربلة/ التخلية والتحلية)، وتصبح ثقافات الغرب صالحة للتطبيق في المجتمعات الإسلاميَّة؛ لأنها صبغت بالصبغة الإسلاميَّة الصحيحة، ودون ذلك تبقى فاسدة لا تصلح لمجتمعاتنا، ويبقى أبناؤنا مغرورين بها وببهرجتها الزائفة.

خاتمة:

خلصت الدراسة بعد العرض السابق إلى ما يأتي:

أ- انطلق الفاروقي في جلِّ كتاباته من مقاصد الشريعة الإسلاميَّة، وخصوصاً كتاباته التي حمل فيها همَّ الأمة، واضعاً الحلول للخلاص من المآزق التي وقعت بها، وهذا هو السرُّ في نجاحه وقبول كتاباته؛ فللنظرة الكليَّة في علاج القضايا ما ليس للنظرة الجزئيَّة.

ب- كان الفاروقي كثيراً ما يُشير في ثنايا دراساته إلى حكم الشريعة،

(١) المرجع السابق، ص٧٢-٧٦.

(٢) المرجع السابق، ص٧٦.

وغاياتها، وأسرارها، ومقاصدها، والهدف من خلق الخلق، ويربط ذلك كله بالتوحيد الذي سمَّاه جوهر الإسلام ونواته، ولا شك في أن هذا أهم ما في المقاصد.

ت- كثرت إشارات الفاروقي في بعض أبحاثه إلى ضرورة الاعتناء بأصول الفقه، الذي هو لبّ المقاصد وأسُّهَا؛ مبيناً تماسك الشريعة وحسن بنائها لأحكامها الثابتة والمتغيرة على أسسٍ تضبطُ الفهمَ من الزلل، وموضحاً أنها لا تُخْلِي أي عصرٍ من العصور عن حكم لها، يستنبطه الفقهاء من أصولها المرنة التي تصلح لكل زمانٍ ومكانٍ؛ وذلك بدوره يُنتجُ فهماً صحيحاً للواقع، ويُعطي علاجاً فاعلاً للمستجدَّات.

ث- العناوين المقاصديَّة التي يمكن أن توضع على توجّه الفاروقي المقاصدي كثيرة، أبرزت الدراسة أهمها وأكثرها فاعليَّة في فكر الفاروقي؛ وقد استطاعت أن تضع اثني عشر عنواناً مقاصدياً يتضمنها كلام الفاروقي؛ هي بمثابة قواعد مقاصديَّة كليَّة مهمَّة.

ج- وأخيراً إذا أردنا التحدث عن مدى إصابة الفاروقي في توجهه المقاصدي، وعنينا بذلك: مدى إصابته في التأصيل لكل أو أغلب قواعد المقاصد، أو مدى إصابته في تطبيقاته على كل قواعد المقاصد؛ فإننا لن نصل إلى المدى الذي نريده؛ ذلكم لأنه لم يقصد الكتابة التأصيليَّة للمقاصد، وكذلك الأمر في التطبيق؛ فلم يقصد تناول قواعد المقاصد واحدة تلو الأخرى؛ بالتطبيق عليها والتفريع لها؛ فهذا شأن المشتغلين بالفقه وأصوله، أما الذين انصبَّ شغلهم بالفكر ومقوماته؛ فليس هذا الأمر من عنايتهم، ولكلٍ موهبته وطاقته وتخصصه. ولكنا إذا أردنا التحدث عن مدى إصابته فيما ظهر من تطبيقاته المقاصديَّة على قواعد المقاصد؛ فإننا سنصل إلى جهد كبير في ذلك، وليس ثمَّة كلام إلا في مدى موافقتنا له، أو عدم موافقتنا له، فيما اجتهد فيه من الأمثلة وتنزيلها على

أصولها المقاصديَّة، وهذا أمر فيه مجالٌ للأخذ والرد، شأنه شأن أي مجتهد اجتهد في قضايا أُمته؛ فربما كان من أصحاب الأجر الواحد، وربما كان من أصحاب الأجرين، ولكل مجتهد نصيب، وحسبه أنه اجتهد وغيره لم يفعل.

obeikan.com